صراعات العقل البشري

تنمية ذاتية

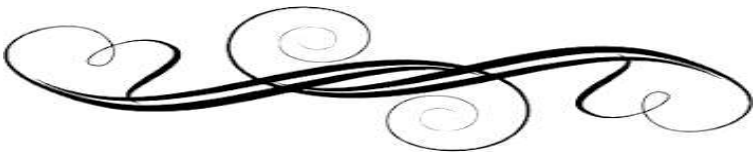

السيد متولي

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنوان الكتاب: صراعات العقل البشري

اســـم المـؤلف: السيد متولي

التصنيف الأدبي: تنمية ذاتية

رقم الإيـــــداع: 26677 / 2022

الترقيـم الدولي: 1 - 554 - 998 - 977 – 978

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصـميـم الغلاف: هـبـــة عمـاد

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـــه

رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390

بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

صراعات العقل البشري

تنمية ذاتية

السيد متولي

ديوان العرب للنشر والتوزيع

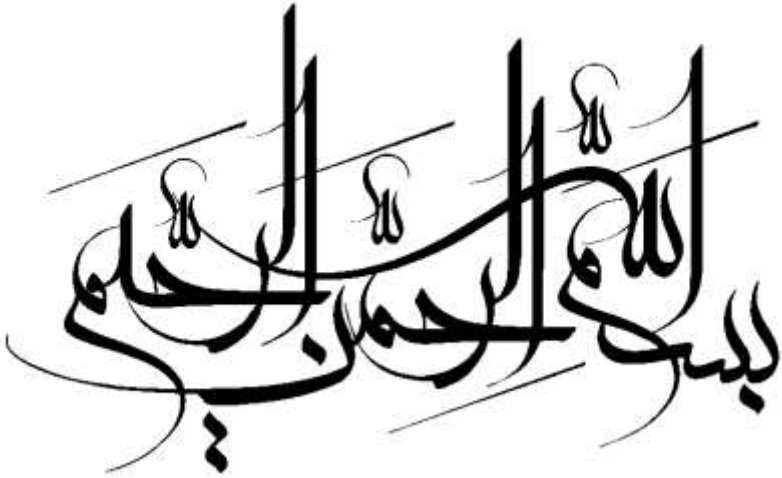
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إهداء إلى أول حب أمي وأبي.

وإلى فضيلة أستاذنا الدكتور المجدِّد، أسامة السيد الأزهري.

مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الدينية.

السيد متولي

****

تقريظ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على الخاتم الذي لا نبي بعده، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

فمما يسعدني ويثلج صدري أن أرى من أبنائي وتلاميذي من هو امتداد لتلك الثلة المباركة من العلماء الربانيين، الذين ساروا في طريق الهدى والنور، ولم يعوجوا عنه من البداية البارقة إلى النهاية المشرقة بإذن الله!
ومن هؤلاء الموهوبين ابننا الحبيب فضيلة الشيخ السيد متولي..الذي قرأت له قبل ذلك كتاب(التفاؤل) فألفيته فيه، و لما سمعته تحققت التفاؤل من فيه، و على محياه تبدي علامات الرضا ما فيه، فابتسامته صادقة، ونظراته مشرقة.
وها هو ذا يتحفنا اليوم بكتاب جديد ذي صبغة علمية، لا تخلو من كسوة أدبية، بعنوان:(صراعات العقل البشري) سهل الأسلوب، واضح العبارة، خفيف لطيف، يأخذ بأيدي الشباب والفتيات، إلى طريق الحق والهدى والنور، واضعا العقل في مكانته، من غير إفراط ولا تفريط، بوسطية الإسلام المعروفة، التي أخبر عنها ربنا جل وعلا في وسط سورة البقرة بقوله: (وَكَذلِكَ جَعَلناكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكونوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ وَيَكونَ الرَّسولُ

عَلَيكُم شَهيدًا) (البقرة/١٤٣)، فالمسلم لا يجور على عقله بحبسه في قفص الحفظ والتلقي، ولا يطلق العنان لعقله بلا ضابط ولا رابط، بل عليه أن يكون وسطا في كل شيء، في عاطفته، وعقله، و عبادته، وسائر شؤونه.

وفي هذا السفر الماتع غُنية وكفاية لمن أراد الله له الهداية، أسأل الله لمؤلفه وقارئه التوفيق والسداد، و الهدى والرشاد!

خادم القرآن الكريم وأهله

فضيلة الأستاذ الدكتور

نصر سعيد عبد المقصود

عميد كلية القرآن الكريم بطنطا سابقا

****

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول وعلى آله وصحبه ومن ولاه،

ثم أما بعد...

فإنّ العقل البشري هو القائد الذي يقود الإنسان في حياته وهو الطريق المستقيم الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في كل إنسان؛ ليتميز عن سائر المخلوقات، فهو مناط التكليف وهو سبيل من سُبل الهداية، وبغيره يصبح الإنسان كغيره من المخلوقات بدون تكليف ولا تميّز، فمن استطاع أن يسيطر على العقل يستطيع السيطرة على الإنسان، وربما يوجد خطأ طفيف في استعمال العقل فيؤدي إلى أضرار وخيمة وجسيمة، فإنّ التشدُّدَ في الفهم بالعقل يودي بالإنسان إلى التطرف والإرهاب وإنّ التساهل فيه يودي إلى الإلحاد الصارخ.

فأحببت أن أشارك بهذا الكتاب، صراعات العقل البشري، لكي أُضمّن فيه الصراعات والمشكلات التي تواجه العقل في حياته ومسيرته، فكم رأيت فقر المكتبات العربية للكتب التي تعيد المسار الصحيح للإنسان عن الطريق والعقل والنقل معاً، فقد تطرقت في هذا الكتاب للحديث عن العقل من عدة جوانب منها، العقل والدين وما يحدث بينهما من صراع،

والحقيقة أنه لا يوجد بينهما صراع أبداً لأنّ كليهما يخرجان من مشكاة واحدة، ولكنّ الصراع والنزاع يكون في نفس المجتهد والفهم الخطأ للنصوص والآيات، الصراع الدائم بين العقل والنفس والقلب والعاطفة بين قلب يريد وعقل يرفض، فقد تناولت هذه الموضوعات بشيء من اليسر والتبسيط ليسهل على القارئ الكريم فهمها واستنباطها.

فاللّٰهُمَّ اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك يا ربّ العالمين، وارزقنا الإخلاص والقبول والسداد والمدد.

السيد متولي

****

الفصل الأول نظرات عن العقل

تعريف العقل

في الحقيقة عندما بدأت في البحث عن تعريفات للعقل، وجدت شيئاً غريباً للغاية، وهو أنّ كل عَالِمٍ عندما يريد أن يعرف العقل، يعرفه بطريقته هو وبتصوره الخاص للعقل، وأنّ كلّ طائفة حينما تعرضت لذلك الأمر، اختلفت تماماً مع الطوائف الأخرى.

فمثلاً عندما يأتي الفلاسفة ويعرفون العقل يختلفون تماماً عن فلاسفة المسلمين، بل إن فلاسفة المشرق يختلفون مع فلاسفة المغرب في تعريف العقل.

بل إنّ من أصحاب الطائفة الواحدة وأصحاب الدين الواحد يختلفون أيضاً في تعريف العقل، مع أنّ الشيءَ واحد، وتعريفاته لا يستطع أحد أن يحصرها من كثرتها وتعددها.

فما السبب وراء ذلك؟

السبب أيها القارئ الكريم، هو ظهور وبيان وإيضاح الشيء، والإمام الغزالي يقول: (إنّ الأمر كلما وضح صعب تعريفه).

فكلما كان الأمر ظاهراً، تعسر تعريفه بتعريفٍ جامعٍ مانعٍ، كأنك تقول ما تعريف الماء؟

وهل يوجد أحد على وجهه الأرض لا يعرف الماء؟

والعقل كذلك تشخيصه يغني عن حده (أي عن تعريفه)

فهو ظاهر بما فيه الكفاية، وهذا الظهور هو السبب في اختلاف العلماء فيه.

ولكن هل يوجد تعريف للعقل؟

بالطبع سيدي القارئ يوجد تعريفات وليس تعريفاً واحداً، وقد قال بعضهم بل أوصلها بعض العلماء إلى ألف (1000) تعريف، وبعد ذلك قال وفيه غير ذلك، أي يحتم وجود تعريفات أخرى.

ومن العجيب في ذلك مع كثرة تعريفات العقل، أن جميع من وضعوا للعقل تعريفاً هو تعريفٌ بالصفات وليس تعريفاً بالذات، فالجميع عندما يعرفونه، يعرفونه بصفاته أي يصفون ذلك العقل، ولا يتطرق أحد إلى ماهيته أو إلى كُنْهه[1]، ولكنّني سوف أعرض بعض التعريفات لكي يتقرب معنى ذلك المفهوم إليك.

[1] كُنْهُ كلِّ شيءٍ قَدْرُه ونِهايتُه وغايَتُه. يقال: اعْرِفْه
كُنْهَ المعرفةِ، وفي بعض المعاني: كُنْهُ كلِّ شيءٍ وَقْتُه ووَجْهُه.
تقول: بلَغْتُ كُنْهَ، معجم لسان العرب لابن منظور

أولاً سنأخذ نظرة خاطفة عن مفهوم العقل في الإسلام وتعريفة عند علماء المسلمين.

العقل كما نعلم جميعاً أنه مناط التكليف[2]، وهو ركنٌ أساسيّ لكي يكون الإنسان مكلفاً، فعند فقدان العقل تبطل على هذا الشخص جميع التكاليف، ولا يكون معاقباً على أي تصرف يقوم به، لأنه فقد الميزان الذي يزن من خلاله الأفعال.

وكما قلنا إنّ التعريفات في العقل كثيرة ومتعددة، لكن سنحاول بإذن الله تعالى أن نستخلص تعريفاً يجمع بين جميع الأطراف.

ومن التعريفات التي وقفت عليها والذي أرى من وجهة نظري أنه قريب للصواب تعريف الإمام الغزالي.

قال في كتابه إحياء علوم الدين: "إنّ العقل يطلق على أربعة معانٍ:

ـ فالأول: الوصف الذي يُفارِق الإنسان به سائرَ البهائم، وهو الذي استعدَّ به لقَبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي؛ حيث قال في حدِّ العقل: إنه غريزة يتهيَّأ بها إدراك العلوم النظرية.

فظاهر التعريف الأول أنه يقصد بالعقل جانب التكليف والتميز عن سائر المخلوقات، واستعداد العقل للتعامل مع الآخرين.

---

[2] التكليف هو أن يكون الإنسان مطالباً بالعبادات وعن جميع أركان الدين، وأنه سيحاسب على جميع أفعاله أمام الله تبارك وتعالى.

ـ الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميِّز بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، كالعلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد.
وظاهر هذا التعريف أنه يقصد به الجانب البديهي في العقل، أو المسلمات الثابتة التي لا تقبل التغيير أو النقاش، مثل الواحد نصف الاثنين، أو الأب أكبر من الابن، فهذه أمور بديهية لا تقبل النقاش فيها، ومن ينكر تلك البديهيات فعنده خللٌ في الجانب العقلي.
ـ الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن حنَّكَتْه التجارب، وهذَّبَتْه المذاهب يقال: إنه عاقل في العادة، ومَن لا يتصف بهذه الصفة، فيقال إنه غبي غُمْر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.
وظاهر هذا التعريف أنه أراد بهذا الجانب المعرفي في العقل والذي يدرك بالحواس الخمس، وأرى أنّ قصده من هذا أنه من لم يدرك ومن يتعلم من تجاربه فعنده خللٌ أيضاً في الجانب العقلي.
ـ الرابع: أن تنتهي قوَّة هذه الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذَّة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوَّة سمِّي صاحبُها عاقلاً من حيث إقدامه وإحجامه، بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواصِّ الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان"

ومنطلق هذا التعريف يدل على أن العقل هو المتحكم في جميع لذات الإنسان، فإذا تحكم فيها الإنسان وجعلها متزنة من غير إفراط ولا تفريط فيطلق عليه عاقل.

كما رأيت أيها القارئ الكريم تعريف الغزالي للعقل وقال إنّ له أربعة معانٍ، وجميع هذه التعريفات تعريفات وصفية للعقل بالصفات وليست بالذات.

وقد صوب الإمام الغزالي النظر على عدة أشياء ووصفها بالعقل وهي:

- التميز والتكليف.
- إثبات البديهيات والمسلمات.
- الإدراك الحسيّ.
- الاتزان والاعتدال.

- وقد نستنبط مما عُرض أنّ العقل في الإسلام هو الأداة التي يقوم من خلالها الإنسان معرفة الخير من الشر والصواب من الخطأ، ومن هنا يصبح الإنسان مكلفاً، وتحسب عليه جميع أعماله.

- أين يوجد العقل؟

قد يعتقد الكثير أن العقل يوجد في الدماغ أو أنه موجود في المخ.

لكن أحب أن أفاجئك أيها القارئ الكريم، أنّ العلماء إلى الآن لا يعرفون المكان الذي يوجد فيه العقل، وعندما بحثت في هذه المسألة وجدت أن

خندق الخلاف يتعمق بين العلماء في ذلك، وكل واحد منهم يرى خلاف الآخر.

العلماء اكتشفوا المناطق المسؤولة عن السمع والبصر والكلام في دماغ الإنسان. ولكنهم لا يعرفون أبداً أين مركز الحبّ والإيمان والضمير... العلماء يعرفون كيف يعمل المخ ولكنهم لا يعرفون أين يوجد العقل!

وقد فصل هذا في مقالة نشرت في مجلة الرياض لأستاذ فهد عامر الأحمدي، وكان مضمونها أنّ العقل اسم شامل للمظاهر الذهنية والعمليات النفسية التي نقوم بها عن وعي أو بغير وعي... إنه النتيجة الملموسة لكل العمليات الفكرية والخصائص النبيلة التي تميز الإنسان عن الحيوان!

ورغم أنّ العلماء لا يعرفون مكان العقل (بالمفهوم الذي ذكرناه) إلاّ أنهم يفترضون وجوده في جمجمة الإنسان. فوجود "العقل" في الجمجمة أصبح من قبيل المسلمات في الوسط الطبيّ والفلسفيّ؛ فها هو الدكتور هانس مورافس يقول في كتاب العقل الطفل (**The mind Children-1990**): "العقل ليس أكثر من كمبيوتر يمكن مستقبلاً تحميله على أسطوانات ليزر". ويشاركه هذا الاعتقاد الجاف الفيلسوف دانيال دينيتي في كتابه تفسير الوعي (**Consciousness Explained-1991**) حيث يقول: "حين نكتشف الدماغ بشكل أفضل سنكتشف أن الوعي ليس أكثر من عملية عصبية لا تختلف عن تنظيم التنفس وإدراك الروائح"!

ولكن الواقع يقول: إنّ وجود العقل في الجمجمة ادعاء لا يسانده أي دليل علمي أو تشريحيّ... الدليل الوحيد المتوفر هو صعوبة تقبل وجوده في مكان آخر، كالمعدة أو الطحال مثلاً!

غير أنّ في القرآن الكريم جملة من الآيات تدعو للتفكر في احتمال وجود العقل في مكان آخر من الجسم... فهناك مثلاً احتمال وجوده في القلب (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) الأعراف 179

أو الصدر (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ) آل عمران 154

أو كامل الفؤاد {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} النجم 11

وقد يقول قائل: إن التعبير هنا مجازيّ لا يشير إلى حقيقة المكان الذي يوجد به العقل!

وأنا لا أبتعد كثيراً؛ غير أنني أفرق بين العمليات البيولوجية التي تجري في الدماغ، والملكات العقلية للإنسان... فالأولى مكانها في الجمجمة حيث مراكز الإحساس والتحكم بالعمليات البيولوجية المعروفة (كالتنفس وتحريك الأطراف).

أما الملكات العقلية فليس مكانها بالضرورة داخل الجمجمة.. لِمَ لا تكون مظهراً لتفاعل الجهاز العصبي بأكمله؟ لِمَ لا تكون نتيجة للتبادل

الكهربائي والكيميائي للأعضاء الداخلية؟ ما المانع الحقيقي في أن تكون للناس (قلوب يعقلون بها)؟

فالجهاز العصبي في الإنسان ليس قاصراً على الدماغ وحده، بل يشمل العصب الشوكي في العمود الفقري، وعقدة الأعصاب في الصدر، والتفرعات العصبية في الأضلاع والأطراف. وهذه الشبكة المعقدة قد تلعب في سريانها وتفاعلها مع الأعضاء دوراً في تخزين وتفعيل الملكات العقلية... والأمر يمكن تشبيهه بسريان تيار كهربائي في سلك له مقاومة كبيرة. فالتيار ينتقل في السلك ولكنه ـ خلال سريانه ـ يولد مظاهر نبيلة كالضوء والحرارة... وهكذا الشبكة العصبية بأكملها؛ فمجرد تناسقها وتواصلها وتفاعلها يولد لدينا (وعي) بكل القيم النبيلة، من الإحساس بالجمال إلى الشعور بالوفاء!

أعلم أن هذا القول لا يعجب أطباء الأعصاب، ولكنني لا أرى ضرورة لحشر كل شيء داخل الجمجمة... وفي حالة إثبات مسؤولية كامل الشبكة العصبية (عن الملكات العقلية) فإننا نكون قد اكتشفنا إعجازاً قرآنياً غير مسبوق في علم المخ والأعصاب.

والخلاف ما زال مشتعلاً بينهم هل العقل في القلب، أم في المخ، أم في أي مكان؟

ومما أرى أن العقل شيء لطيف له علاقة بجميع أجزاء الجسد، وله التحكم فيها.

الفرق بين العقل والمخ والدماغ

ساد المعتقد عند كثير من الناس أن العقل هو بداخل المخ، أو أن الدماغ يحتوي على عقل ومخ، لكن أحب أن أقول لك عزيزي القارئ: إنّ الحقيقة غير ذلك تماماً.

فالأمر يختلف عما كنت تعتقد، فكل واحد من الثلاثة يختلف عن الآخر تماماً.

ولكن أثبتت الدراسات العلميّة الحديثة وجود اختلافات عظيمة وكبيرة بين المخ والعقل من خلال الوظيفة والأوامر التي تُعطيها للجسد.

أولاً: العقل

وقد تحدثنا عنه في البداية، وهو القائم بعملية التفكير والذكاء، والتحليل، والشخصية.

يُطلق مصطلح العقل بشكلٍ عام للتعبير ووصف كافّة المهام الخاصّة بالدماغ البشري، وبالتحديد الوظائف التي يكون بها الإنسان واعياً بشكل كامل، كالحوار والتفكير والمناقشة والذّكاء والذّاكرة والتحليل، والوظائف الخاصّة بالانفعالات العاطفيّة، والتي تعدّ من المَهام الموكولة إلى العقل.

ثانياً: المخ أو الدماغ

يعدّ المخ أو الدّماغ الجزء الرئيس في الجهاز العصبيّ عند جميع الكائنات الفقاريّة واللا فقاريّة، ويُحفظ داخل جمجمة الرأس، ويقوم هذا الجزء بجمع المَعلومات وتحليلها، وأيضاً الإدارة والسيطرة على كافّة الأعضاء في الجسم، وبالتالي يعدّ المخ المصدر الرئيس لإنتاج المعلومات.

ثالثاً: الفرق بينهم

يُعدّ العقل كلمةً معنويّةً فقط ويُقصد بها القدرة على التفكير وهي الخاصيّة التي يتميّز بها الإنسان عن الكائنات الحيّة الأخرى، أمّا المخ فهو مفهوم ماديّ ويتمثّل بالعضو الموجود داخل جمجمة الرأس البشري، ويحتوي على مكونات أخرى كجذع الدّماغ والمخيخ، ويتكوّن من الماء بنسبة **80**٪، وتُشكّل الدّهون باقي مكوّناته، ويبلغ وزنه حوالي **1400** غرام تقريباً.

يحتوي المخ على العديد من الخَلايا العصبيّة والتي تتراوح في عددها ما بين **100**-**150** مليار خليّة عصبيّة، وتحتوي الخليّة العصبيّة الواحدة على أكثر من **60** ألف تشابك عصبيّ؛ حيث يُمكن أن ترتبط كل خليّة عصبيّة بأكثر من **100** خليّة عصبيّ آخر، على الرّغم من أنّ نسبة وزن الدماغ للجسم الكلّي هي **2**٪ إلّا أنّه يحتاج إلى **30**٪ من الطاقة الكليّة التي يحتاجها

الجسم كي يعمل بالطريقة المطلوبة، أي ما يساوي **90** كيلو كالوري في السّاعة الواحدة، كما يستهلك **20**٪ من كميّة الأكسجين الخاصّة لكافة الجسم.

إنّ تركيب الخليّة العصبيّة في مخ الإنسان مشابه للتركيب المتواجد في كافّة خلايا الجسم الأخرى؛ حيث إنها تتكوّن بشكلٍ رئيسٍ من السيتوبلازم والنّواة المحاطة بغلافٍ خلوي، ولكن تختلف عن الخلايا الأخرى بالشكل باتّخاذها الشّكل الجوهري، حيث إنّ خلايا المخ لا تخضع لقانون الاستهلاك بل إنّ كل مستهلك لا بديل له. ينتقل السّيال العصبي بين خلايا الدّماغ وجسم الإنسان من خلال استخدام **50** مادّة كيميائيّة، وبسرعة أكبر من سرعة الضوء، فالدماغ البشريّ قادر على تخزين أكثر من مليونيّ معلومة خلال الدقيقة الواحدة، وذلك من خلال العقل اللا واعي، أمّا العقل الواعي فلا يستطيع التركيز على أكثر من **9** معلومات في الوقت الواحد.

فيتضح مما ذكرنا أنه يوجد اختلاف شاسع بين العقل، والمخ، فالمخ هو العضو الذي يوجد داخل الدماغ، والعقل هو شيء جوهري متحكم في عدة أمور مثل الشخصية، والذكاء، وغيره.

- **مقومات العقل البشري**

من المقومات الأساسية أو الصفات الرئيسة للعقول البشرية، أنه لا يكون جهازاً فوضوياً أبداً، بل يعتمد على المعلومات والترتيب المنهجي لها، ولا يقبل بالعشوائية الحرة، فكل شيء يعمل فيه العقل لابد أن يتسم بالمنهجية المنظمة ويتسم بالتنظيم الدقيق، سواء كان صواباً أم خطأ.

فالصواب والخطأ في التفكير لا يعني الفوضوية، بل إنّ الوصول إلى النتائج غير الصحيحة، دليل على أن المقدمات المستخدمة في القياسات العقلية لم تكن صحيحة بما يكفي للوصول إلى النتائج المرغبة، وكما رأينا حتى في النتائج الخاطئة يوجد فيها تنظيم واتساق ولم تكن فوضوية أبداً.

أقسام العقل

1/ العقل الواعي

العقل الواعي، فالعقل الواعي يتميز بخصائص كثيرة، حيث إنّ العقل الواعي يعتبر ذا تركيز محدود، وفكر منطقي وعملي، يبحث في المشكلة ويحدد أسبابها ويحللها للحصول على نتائج وحلول، ويخزن المعلومات في الذاكرة طويلة الأمد أو قصيرة الأمد، ويستجيب بسرعة، فالعقل الواعي يعطي ردة فعل مناسبة للمؤثرات الخارجية.

صرح العالم النفسي " جورج أ. ملر " من جامعة " هارفارد" في الدراسة التي أجراها عام **1956** أن العقل الواعي قادر على استيعاب أكثر من سبع معلومات (إيجابية، سلبية) في لحظة ما.. أي أن سعة العقل الواعي محدودة.

2 /العقل اللا واعي (العقل الباطن)

يختلف العقل الباطن غير الواعي عن العقل الواعي بالخصائص والتصرفات، حيث إنّ العقل الباطن تركيزه غير محدود، فيستطيع تخزين وملاحظة الملايين من المعلومات في الثانية الواحدة، كما يربط المعلومات ليشكل سلسلة أفكار مترابطة، ويؤثر على تصرفات الإنسان، فمن خلال تهذيب عقلك الباطن يمكنك الحصول على نتائج ممتازة، والعكس صحيح في حال إساءة استخدامه.

أمّا العقل اللا واعي ففي إمكانية استيعاب ما يزيد عن 2 بليون معلومة في الثانية. وفي الواقع يحتوي العقل اللا واعي على جميع ذكرياتك وبرامجك مُذ كنت جنيناً في الرحم، أي أن للعقل اللا واعي قدرة على استيعاب لا محدودة على الإطلاق. فكيفية برمجتك للاتصال خلال فترة الصبا والشباب لازال موجوداً في عقلك اللا واعي خلال المراحل المتقدمة من العمر، وأيضاً ردود فعلك الاعتيادية تجاه أشياء معينة وتصرفات محددة. باختصار إن هذه البرامج الموجودة منذ أمد طويل هي التي تحدد طبيعة سلوكك.

•العقل والتفكير

هل تساءلت يوماً ما وقُلت لماذا لا يمكنني التوقف عن التفكير؟
لماذا أفكر طوال اليوم في أربع وعشرين ساعة؟
كل هذه الأسئلة تطرق أبواب المعرفة لكي تصل إلى ما يريحها من عناء البحث والتخبط.
بل ربما تجد في نفسك في دوامة من التفكير الذي لا ينتهي، حتى وإن اتخذت قراراً بعدم التفكير؛ فستجد نفسك تفكر كيف تتوقف عن التفكير (تفكر بألّا تفكر).
بين العقل والفكر عموم وخصوص، فكلّ عقل فكر ليس كلّ فكر عقل، لأنّ العقل أعم من الفكر، بل الفكر من أدوات العقل.
فالفكر هو الأداة التي يستخدمها العقل من أجل الوصول إلى نتائجه، وهذا ليس هو الأداء الوحيدة، بل هناك أدوات عديدة يتوصل من خلالها العقل إلى المعلومات؛ فالعقل يعتمد أيضاً على الحواس الخمس، لكي توصله إلى معلومات يقينية.
وتعتبر الحواس من أهم المصادر التي يستخدمها العقل في تحديد حسابته حتى قال بعض العلماء هو يتحدث عن العقل، لكي نستطيع أن نحكم على العقل هل هو سليم أم لا، لابد أولاً من التأكد من صحة الحواس الخمس وهي العين، والسمع، اللمس، والتذوق، والشم.

فتلك هي المصادر الأولية التي تمكّن العقل من الوصول إلى معلوماته، فعندما نتأكد من سلامة الحواس، مع سلامة الدماغ، نستطيع بهذا أن نعمم الحكم ونقول: إنّ هذا العقل سليم.

لكن عندما يحدث خلل يعوق في استقبال المعلومات في هذه الأشياء، فربما يكون هناك خلل أيضاً في جانب التفكير العقلي.

ويقسم فضيلة الأستاذ الدكتور أسامة السيد الأزهري مستشار فخامة رئيس الجمهورية في الشؤون الدينية العقل إلى ثلاثة عقول.

العقل الأول: العقل السطحي.

هو الذي تعوّد أن يقف عند ظواهر الأمور، ويكتفي بإدراكها والعبور عليها دون غوص ولا فكر ولا تحليل؛ فهو مشغول دائماً بالأحداث والأشخاص، يلهث وراء مجريات الحياة التي لا تنتهي، ويغرق في ضجيج الحياة، وأحوال الأشخاص، وشؤون معيشتهم، وهو شغوف بمعرفة من باع ومن اشترى، ومن خاصم ومن صالح، ومن تزوّج ومن طلّق، ومعرفة الأسواق، والأسعار، والأقارب، وما جرى بينهم، ومن مرض منهم، ثم كيف شفي، ولماذا، ومعرفة ما يقع يومياً من الأولاد وزملائهم، والجيران وجيرانهم، ورفاق العمل ومشكلاتهم، وكثيراً ما يقع لهؤلاء جميعاً إشكالات، ووقائع، وقضايا؛ فيغرق ذلك العقل فيها، وفي تطوراتها، وفي تداعياتها،

ويظل طوال العمر وهو يغوص في تلك الرمال المتحركة، حتى يتحول ذلك العقل بالتدريج إلى مستوى شديد التفاهة، لا يعرف من الأمور إلا ضجيجها وتسارعها وتقاطعها، فلا ينتج فكراً، ولا يصنع عمراناً، ولا يزداد إيماناً، ولا يبدع حضارةً، بل يذهب منه العمر هباءً.

العقل الثاني: عقل عميق

ينظر إلى الأحداث والأشخاص والأحوال والوقائع؛ فيعرفها ويدركها، لكنه لا ينشغل بها، ولا يتوقف عندها، ولا يكتفي بسردها والحديث عنها، بل يرتقي إلى تأمل ما وراءها من قضايا، وما يتسبب فيها من أفكار.

وكلما طرأت عليه أحداث الحياة بضجيجها وصخبها وزحامها؛ انصرف عن ذلك كله إلى ما يحرك كل ذلك من عوامل، فتتجرد في نظره كل الأحداث من أثوابها وزخارفها، حتى يرى بوضوح من أين تبدأ وتنشأ، وإلى أين تمضي وتؤول، فهو يرى كل أحداث الحياة من منصة عالية، تسمو فوق أحداثها الصاخبة المتلاحقة اللاهثة؛ فلا ينجرف في جزئياتها، ولا تغمره بأمواجها، بل يراها من أعلى، من منظور (عين الطائر) كما يسميه هواة التصوير، فكأنه طائرٌ حرٌّ، محلِّقٌ فوق كل الأحداث، يراها من أعلى، فإذا هي أمامه واضحة، من بدايتها إلى نهايتها، يعرف منشأها ومآلها؛ فيحكم على كل حدث وعلى كل شيء حكماً سديداً، مستوعباً، فهذا العقل العميق هو الذي

يصلح للقيادة، وهو الذي يعرف كيف يفكّر، وهو الذي ينشأ على يده البحث العلمي المنهجي، وهو الذي ينتج الاكتشافات والاختراعات، وهو الذي يعرف الناسُ منه الحكمة، وهو الذي يصنع العمران.

العقل الثالث: عقل مستنير

يعرف الأحداث والأشخاص، ويرصد كل ذلك، ويلم بمجريات الحياة كالعقل الأول، ثم يغوص إلى أعماقها، ويرى ما وراءها كالعقل الثاني، ثم يربط كل ذلك بالله، فإذا به عقل أنارت أمامه الكائنات والحادثات والوقائع، وزادته ربطاً بالمولى سبحانه، وهو عقل يتأمل، ويحلل، ويفكّر؛ فيرى الله تعالى في كل شيء، فإذا كل واقعة، وكل شخص، وكل حدث، وكل أمر، وكل قضية، تسمو به وترتقي، فتذكّره بالله، وهو يغوص في أحداث الحياة؛ فلا يكون حظه فقط أن يصل إلى الأعماق، بل هو يصطاد اللؤلؤ، ويلتقط جواهر المعرفة، ويخرج من كل حدث بزيادة في إيمانه، وارتقاء في سعة معرفته بربه، وهو يرى الحكمة الإلهية في كل واقعة، وتبصر عينه مشاهد الجلال والصنع الإلهي في كل حدث.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾

فالسموات، والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما يستكين فيهما من أحداث الخلائق، وشؤون البشر، وأمور المعيشة، وتعاملات الناس، كل ذلك آيات لأصحاب العقول، فتعالوا لنرى مسلك أصحاب تلك العقول في التفكير:

أولًا: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾؛ فذكرُ الله تعالى حاضرٌ على ألسنتهم وفي وجدانهم، في كل وقت، وعلى كل حال، وجلال الربوبية حيٌّ نابضٌ حاضرٌ في أفئدتهم، يتداعى سريعاً إلى أذهانهم كلما أرادت الفكر، فلا ينشغلون بأحداث الحياة، وزحامها، وتدافع البشر فيها، رغم معرفتهم بكل ذلك، بل تنصرف عقولهم إلى ما وراء ذلك من الحِكَمِ والدوافع، فينطلق العقل حرّاً من الأثقال والأغلال، مصحوباً بأنوار ذكر الله تعالى، يستنير بها، ويهتدي بأنوارها، فانظر ماذا كانت النتيجة بعد ذلك، لقد انطلق العقل ليفكر، ذاكراً، حرّاً، مستنيراً، محلِّقاً؛ فكانت النتيجة:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾، وهو المبدأ الثاني بعد الذكر، ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

فأمعنت عقولهم في البحث العلمي التجريبي، المتعلق بعلوم الأرض والفضاء، وأمعنوا النظر والتأمل والتدبر والبحث والتفتيش في شؤون السماوات والأرض؛ فارتبط كل ذلك عندهم بالمولى سبحانه، ورأوا فيه مشهد الجلال الرباني، وشهدوا فيه الحكمة والتدبير والتقدير:

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

فتأمل الآية جيداً؛ تجد أن العقل المستنير مكون من أمرين اثنين، لا ثالث لهما:

1- ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾.

2- ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

يذكرون ويتفكرون، ذكرٌ وفكرٌ، ذكرٌ ينير الطريق، ويوصل إلى الله، وفكرٌ يبدع ويتألق، ويحلُ فيهتدي، ويعرف فَيَتَّقِي، ويخترع فيرتقي، ويكتشف فينتقي.

فهذا العقل المستنير المتألق، هو الذي ينطلق، ويفكر، ويبدع، ويذكر الله كثيراً، وعلى كل حال، ويفهم مراد الله منه، ويعظّم شعائره، ويحب أولياءَه، ويكون مع الصادقين، ويؤثر الآخرة، ويتعلق بالكمالات النفسية والأخلاقية، ويغوص على أسرار الموجودات، ويستلهم قوانين الأكوان، فتنشأ الحضارة، وتفيض العلوم، والفنون، والآداب، وتهتدي الخلائق.

فهذا هو المسلم، الذي جاء الشرع لبنائه وتكوينه، وهذا هو المسلم الذي يكون رحمة للعالمين، وهذا هو المسلم الذي يعبّر بحق عن هذا الدين، وهذا هو الإنسان الذي أراده الله، وأنزل لأجله الكتب، وبعث لأجله الرسل.

****

الفصل الثاني اللّه والعقل

هل العقل يودي إلى الإلحاد؟
هل العقل منفصل عن الدين؟
العقل في القرآن
أثر الانفراد بالعقل عن الدين

• هل العقل مخالف للشرع؟

قد يعتقد الكثير من الناس أنّ التفكير بالعقل يودي إلى الإلحاد، وأنّ العقل ينفصل في جانب والدين في جانب آخر، ولكن أحب أنّ أقول لك أيها القارئ الكريم: إنّ العقل والدين متلازمان لا ينفصلان أبداً، فعند انفصال العقل عن الدين يودي إلى الإلحاد، وانفصال الدين عن العقل يودي إلى التطرف والإرهاب.

فإنّ الأرض الخصبة التي ينبت فيها الإلحاد هي التفكير بالعقل دون اللجوء إلى النصوص الدينية، والجذور الأولى للتطرف والتكفير هو الانفراد بالنص دون فهمه أو توظيفه في الواقع.

ومن العجيب جدّاً أنّ الطريق الأول لمعرفة الله سبحانه وتعالى هو العقل، والغرض من الأنبياء والرسل الذين أرسلوا إلينا لا ليعرفونا على الله، ولكن ليوصلوا لنا ماذا أراد الله.

لذلك حينما سُئِلَ الإمام علي كرّم الله وجهه، كيف عرفت ربك؟ وهل عرفت ربك بمحمدٍ أم عرفت محمداً بربك؟

فقال: عرفت ربي بربي والذي دلني على معرفة ربي هو محمد نبيه.

فالمستنبط من كلام الإمام علي كرم الله وجهه أنّ الفطرة السليمة النقية والعقل القويم المتزن المستقيم يستطيع أن يدرك ويعرف ويصل إلى الله بالاستنباط والتحليل والتفكير في المخلوقات التي حوله.

لذلك حينما سُئل الأَعرابي عن أدلة وجود الله سبحانه وتعالى، قال: البعرة تدل على البعير، والسير يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا يدل ذلك على العليم الخبير، فهذا الرجل الأَعرابي الذي يعيش في البادية لم يرَ إلا الناقة والبعير، ولم يدرس المنطق ولا الفلسفة ولا شيئاً من علوم الجدل، مع ذلك أجاب إجابةً عقليةً منطقيةً خالصةً يوضح فيها الدليل القاطع والبرهان الواضح على وجود الله، فقال: السير يدل على المسير أي أنه يوجد علامات أقدام أو علامات سير؛ فلا بد أن نجزم أن يكون أحد قد مرَّ من هنا، ومن يقول بخلاف ذلك فقد خالف الفطرة، ولا بد أن يكون عنده خلل في العقل، لأن هذه الأشياء من البديهيات الأساسية الرئيسة الذي لو أنكرها إنسان لخرج عن نطاق المألوف.

فهذا الرجل لم يستدل بأدلة نقلية ولا أدلة نصية على وجود الله، بل استخدام العقل بمفردة ليصل إلى ذلك.

فعندما أُعطي للعقل المقدمات الصحيحة، فبالحتم أخرج له النتائج الصحيحة.

فمن يعتقد أن العقل يختلف مع الشرع أو يتصادم معه مخطئ بكل المقاييس، فنحن نحتاج العقل لفهم الشرع، ونحتاج الشرع لحفظ العقل، فالمبادئ الأولى للوصول إلى الله تعالى، هو العقل البين المستنير البعيد عن التخبط، وسنذكر بعض القصص التي توضح الكارثة الكبرى من انفصال الدين عن العقل، وإن كانت هذه القصة غير صحيحة إلا أنها لها مغزى ومنطلق في ذلك وصحيحة في معناها.

اجتمع الأبالسة يوماً إلى كبريهم وقالوا: مالنا نراك إذا مات عابد حزنت، وإذا مات عالم فرحت، أتفرح لموت العلماء مع قِلة عبادتهم، وتحزن لموت العباد مع كثرة عبادتهم، قال: لابد إلى ذلك من بيان، فأخذ جنده وأولاده وذهبوا إلى عابد في صومعته في وقت الظهيرة، فدقوا علب باب الصومعة، فقال العابد: مَن؟ قال: سائل يستفتيك، ففتح له العابد الباب وقال: ما حاجتك؟ فقال إبليس: هل يستطيع ربك أن يجعل السماء والأرض والجبال والسهول والإنس والجن والطير والحيوانات وأنا وأنت في بيضة؟ فحارَ العابد وسكت قليلاً، فقال إبليس: هل يستطيع ربك أن يجعل هذا الجبل الأشم في هذه البيضة؟ فنظر العابد إلى الجبل وإلى البيضة، وقال منكراً ومستهيناً

بقدرة الله: كيف ذلك لا يمكن أن يحدث ذلك أبداً، فخرج إبليس من عنده سعيداً، وقال لجنده: انظروا كفر بربه مع كثرة عباده لأنه جاهل.

وبعد ذلك ذهب إلى عالمٍ من العلماء في وقت الظهيرة ودق على بابه، فقال العالم: مَن؟ قال: سائل يستفتيك، فقال له: ارجع فقِلْ[3]؛ فإنّ الشياطين هي التي لا تقيل، فرجع إبليس وأتاه وقت العصر ودق على بابه فقال: من؟ قال: سائل يستفتيك، ففتح له وقال: ما حاجتك؟ فقال هل يستطيع ربك أن يجمع العالم والسماء والأرض، والجبال والسهول، والإنس والجن، والطير والحيوانات، وأنا وأنت في بيضة دجاجة؟ فقال: اخسَأ يا لعين خلقه من العدم ويعيده إلى العدم.

فالحاصل من ذلك أنّ العابد مع كثرة عبادته وتعلقه بالدين ومواظبته على العبادة إلا أنه بسبب جهله وعدم علمه جحد قدرة الله سبحانه وتعالى واستهان بها، والعالم المشغول دائماً بقلمه وقرطاسه وحرصه على العلم والبيان والفهم والاستنباط القائم على الدليل استطاع أن يصل إلى كمال المعرفة بالله سبحانه وتعالى.

وحينما سُئِل بعض الأئمة عن أدلة وجود الله سبحانه وتعالى، قال: ورقة التوت. قالوا: كيف؟ قال: تأكلها الشاة فتخرج لبناً، وتأكلها الغزالة فتخرج مسكاً، وتأكلها الدودة فتخرج حريراً، ويأكلها الثعبان فيخرج سمّاً، فالداخل واحد والخارج متعدد، ألا يدل ذلك على وجود العليم الخبير.

[3] - يقصد بها القيلولة.

فحاصل ذلك أيضاً أنه استدل بالعقل على وجود الله سبحانه وتعالى دون اللجوء إلى أي نصٍ نقلي، ولم يستشهد بأي دليل من القرآن الكريم أو السنة المطهرة على إثبات وحدانية الله، بل إنه أعمل الحجج العقلية والأدلة المنطقية. واستعمل أساليب الاستنباط الصحيحة القويمة التي إن صحت أوصلت الإنسان في النهاية إلى الحقيقة الصحيحة والتي يعول عليها إلى وجود محرك أول وعلة أولى لهذا الكون البديع وهو الله سبحانه وتعالى.

فربما يسأل سائل ويقول: هل العقل بمفرده يستطيع أن يصل إلى معرفة الله؟ فإذا كان السؤال بهل فإن الإجابة بنعم يستطيع أن يصل إلى وجود خالق لذلك الكون الفسيح الواسع العجيب المتقن.

وربما أخطأ الكثير ممن يتبنون الفكر الإلحادي ويحدث لهم لبس وغلط في التفكير فينكرون الخالق جملة وتفصيلاً، والسبب والعلة من وراء ذلك أنهم لم يفهموا جيداً معنى المعرفة، ويأخذون نصوص الدين بدون تفهم وتعقل لتلك النصوص فيشكل عليهم الأمر فيصرخون وينادون بأنه لا يوجد علة لهذا الكون.

من هنا علينا أن نبدأ بما قاله أبو حامد الغزالي عن أنواع المعرفة وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المعرفة الغيبية الميتافيزيقية والتعرف عليها لا يأتي إلا عن طريق الوحي الإلهي.

الثاني: المعرفة المنطقية الرياضية والطريق إليها لا يتم إلا عن طريق العقل والمنطق.

الثالث: المعرفة التجريبية والطريق الوحيد إليها الحواس وهدفها الظن لا اليقين.

فكما تبين من كلام حجة الإسلام الغزالي أنه يوجد معرفة غيبية ميتافزيقية[4]، لا تأتي إلا من طريق الوحي والسماع ولا يستطيع العقل أن يصل إليها، لأن العقل له حدود معينة لا يستطيع أن يتخطاها، ومن يجهد نفسه وعقله في التفكير في هذه الأمور ظناً منه أن سيصل إلى نتيجة وفائدة مخطئ خطأ فادحاً، لأن تلك الأمور خارج نطاق العقل ولا يستطيع أن يفكر وينتج فيها معرفة، والخطأ الذي يقع فيه كثيراً من المنكرين والمشككين والملحدين أنهم يريدون أن يصلوا لكل شيء بالعقل والحواس والتجربة؛ فيقيسون الشاهد على الغائب والمحسوس على اللا محسوس فيهون بأنفسهم في خنادق الظلام وينكرون وجود البارئ تبارك وتعالى، ويضربون بجميع النصوص عرض الحائط ظناً منهم واعتقاداً أنهم سيصلون إلى معرفة جديدة، ولكن الواقع خلاف ذلك تماماً، فنرى أن جميع من تبنى ذلك المنهج وهو منهج الوصول إلى كل شيء بالعقل والحواس والتجربة، نجد أن جميعهم عندهم خلل في المنهجية.

[4] - ميتافيزيقا: هي كلمة يونانية تُعني ما وراء الطبيعة

الفكرية، وأن جميعهم في النهاية سيصلون إلى نهاية واحدة فنهاية الطريق واضحة بالنسبة لهم، وأنا أناشد كل عقل من عقول هؤلاء الذين يدعون المعرفة والفهم والاستنباط، ولكن هم على غير ذلك تماماً من ناحية التفكير العقلي، هل توصل أحدٌ ممن كان قبلكم من الذين ساروا على ذلك الطريق ونهجوا ذلك المنهج المختل الضال إلى نتيجة وفائدة أو حتى معرفة جديدة، بل إن الجميع ممن يضعون النظريات في نشأة الكون وبدايته وبداية الخلق فيه أشياء لا يصدقها عقلٌ واعٍ، وربما البعض منهم بعد أن يخوض في ذلك الطريق يرجع إلى رشده وإلى عقله فيثبت وجود الله تعالى، ويعلم أنه كان على ضلال بين وقد تبين ذلك ووضح لنا ذلك الأستاذ الكبير د. مصطفى محمود عليه رحمه الله، فبعد أن حدث له شطب وخلل في المنهجية التي كان يسير عليها، أعاد التفكير مرة أخرى بطريقة العاقل الفطن الذي يقف أمام النصوص وقفة المحايد فهداه الله ورجع عن طريق الإلحاد إلى طريق الإيمان وطريق الهدى والنور، فالذي نستطيع أن نستنبطه من موقف الدكتور مصطفى محمود في ذلك أن عقله الذي أوصله للكفر والإنكار هو ذلك العقل الذي أوصله إلى الإيمان والتصديق، فالعقل واحد ولكن طريقة التفكير ومنهجية الفهم مختلفة من شخص إلى شخص آخر، فإذا صحت المقدمات صحت النتائج وإذا ضلت المقدمات وانحادت عن الطريق ضلت النتائج أيضاً، فالعقل كالألة إذا قدمت له فكراً صحيحاً؛ أخرج لك

نتائج صحيحة وإذا قدمت فكراً سقيماً؛ فالنتائج من الأولى أن تكون سقيمة.

والمنكرون دائماً على ثلاثة أنواع:

1- النوع الأول: هو من يبحث عن علم وفهم، ويبحث في المادة الأولى والهيولة الأولى لنشأة الكون وبداية الخلق وأرى أن ذلك النوع سيصل إلى الإيمان والتصديق، وأنّ للكون خالقاً ومبدعاً في يوم من الأيام، لأن عقله الذي أوصله للكفر والإنكار ربما يوصله إلى الإيمان وأنّ للكون علة أولى، وأن ذلك الرجل يبحث بمنهج علمي والعلم لا يتعارض من الدين إطلاقاً، بل يكون اللبس في نفس القارئ والمفكر فيعتقد أن الدين والعلم يختلفان، ولكن الحقيقة على خلاف ذلك تماماً، فهذا النوع إلى حد كبير في يوم من الأيام سيصل إلى الحقيقة.

2- النوع الثاني: وهو من لا يبحث ولا يعلم، بل يتبع من قبله ويسير على نهجه سيراً أعمى بلا دليل ولا حجة، فهو مقلد أحمق لا ينتج فكراً جديداً، بل يكابر ويعارض بغير علم ولا دليل قائم على معرفة، وذلك النوع من الصعب إقناعه بدليل أو تغيير الأفكار التي يتبناها لأنه قد تيقن من صحتها ويعتقد أن ما يراه هو الصواب وجميع من يخالفه مخطئ، وذلك هو الخطأ الفادح الذي يعاني منه العلماء والمشايخ في مجادلة هؤلاء القوم لأنهم لو كان عندهم شيء من العلم والتفكير الصحيح لكانوا يستعمون إلى من

يعارضهم فربما يكونون على صواب وهم حقاً على صواب، وذلك النوع ربما يغير طريقة المعتقد إذا أخرجت له التناقض في منهجه وعند من يسير على طريقهم.

3- النوع الثالث: وهو المنكر المعارض الذي يعرف الحقيقة، ولكنه يكابر ويعاند وهو يعلم جيداً أنه يسير في طريق الغي والضلال، إما لهدفٍ ماديّ ينشدونه من وراء ذلك وإما للحصول على شيء يترجاه ويبغي الوصول إليه، وإما لأنه يريد التحرر كما يعتقد أنه تحرر من قيود الدين ولا يعلم أن ذلك مذلة وسفه وخلل في فهمه وعقله وإدراكه؛ فيرد حسب اعتقاده إلى التحرر من قيود الدين ويكون الهدف الأول والأخير عنده هو البحث عن الملذات وشهوات النفس واتباع الأهواء، فيصير العقل في جانب وهو في جانب آخر تماماً، ويخالف الفطرة السوية النقية التي أوجد الله عليها الخلائق،

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

سورة الروم (**30**)

بل وينكر تلك الفطرة جملة وتفصيلاً، لكي يوافق هواه ونفسه، ويكون بذلك لا يوجد فارق بينه وبين الحيوان، لأن الميزة والفضيلة التي فضلنا بها عن سائر الكائنات هي العقل، وها نحن نرى أنه يعطل العقل عن وظائفه الأصلية ألا وهي التفكير المنطقي والتمييز بين الصحيح والسقيم ويوقفه

عن طريقه الصحيح ويحيد به إلى مسار الضلال والغيّ والظلام التام الذي لا يخرج نوراً أبداً، فنجد أن ذلك النوع لا يؤمن إلا بالإباحية، أي أن كل شيء عنده مباح، يفعل ما يشاء دون أن يحتكم إلى نص ولا شرع ولا أي شيء، وذلك النوع هو من أخطر الأنواع لأنه يسلب من الإنسان كل مظاهر الإنسانية، ويعطل العقل والضمير والفطرة على مهامها الأصلية فينتهك جميع حقوق المجتمع وينظر إلى الآخرين على أنهم أعداء وذئاب يجب محاربتهم والتخلص منهم، فنجد مثلاً لذلك توماس هوبز.

إذاً فقد كان الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز هو أحد كبار عيون العقل الغربي وأحد أهم الآباء المؤسسين لفكرة السلطة والدولة في القرن السابع عشر... تخصص في الرياضيات والفلسفة وله كتاب لا زال يقرؤه الناس حتى اليوم بعنوان (الليفياثان) والكلمة تشير إلى حيوان خرافي له جسم ثعبان ورأس تنين يعيش في البحر...

عمنا توماس له جملة شهيرة وردت في هذا الكتاب (الإنسان ذئب الإنسان في حرب الجميع ضد الكل)، طبعاً الرجل كان متأثراً بظروفه التي عاشها.. (الحرب الأهلية الإنجليزية والتي استمرت عشر سنوات تقريباً من **1642** - **1651**م) خلاصة ما قاله هوبز: إنّ العلاقة بين البشر محكومة بالصراع والعداوة اللا نهائية... صراع يفترس فيه الإنسان أخاه الإنسان... كما وإنّ الإنسان لا يختلف في هذا الصراع عن الحيوان في أنانيته وشراسته...

والصورة التي ترسم له على غير ذلك هي أقرب ما تكون إلى الأماني والأوهام أكثر منها إلى حقائق الواقع الذي يعيشه البشر ويعرفونه جيداً في التاريخ وفي الحاضر.

جملة (الإنسان ذئب للإنسان) وصفها الفيلسوف الفرنسي المسلم روجيه جارودي الذي عاش **99** سنة **1913** -**2012** منهم **30** سنة فقط في الإسلام وضعفهم في الشيوعية... وصفها بأنها (أصل الشرور في العالم)، وهو صائب تماماً فقد عرف في الإسلام: ما الإنسان؟ وما الحياة؟ وما الموت؟ وما الصراط المستقيم...

لكن فيلسوف الوجودية الفرنسي سارتر الذي عاش **75** سنة من**1905** – **1980** والذي لم يعرف سيقول لنا الجحيم هم الناس الآخرون، وعندما يكون الآخرون جحيماً؛ فالعلاقة معهم ستكون حتماً سلبية لأنهم سيكونون مصدر إزعاج وضيق وتعذيب وألم وشقاء وحد من الحرية، أما الفيلسوف الألماني فريدريك نتشه الذي عاش **56** سنة من **1844** – **1900** م ومات مجنوناً، "جاب من الآخر" كما يقولون، وقال جملته الجميلة جمالاً جمولاً: (إن معنى أن نعيش هو أن ننهب ونجرح ونعتدي على الضعيف والغريب وأن نفرض عليهما وبقسوة مقولاتنا الخاصة. مدفوعين برغبتنا في المحافظة على ذاتنا وإشباع المزيد من الرغبات والاستحواذ على المزيد من القوة وإذا ما اشتدَّ هذا الصراع فإنها الحرب.

فكما رأينا من ذلك أن جميع الفلاسفة التي ذكرناهم يدعون إلى التمسك بالذات فقط والإطاحة بجميع الآخرين، وذلك كله يرجع إلى إنكارهم وإنكار كل من سار على دربهم إلى وجود خالق لهذا الكون.

نعود مجدداً إلى المعرفة عند الغزالي.

فتحدثنا عن النوع الأول للمعرفة وهي المعرفة الميتافزيقية أو المعرفة الغيبية

التي تأتي لنا عن طريق السماع والوحي، وتحدثنا عن خطورة إنكار ذلك المعرفة وما يترتب عليها من انتهاك للمجتمعات، والنظر إلى جميع الآخرين نظرة دونية ونظرة شريرة، تنبع عن المعتقد.

النوع الثاني عند حجة الإسلام الغزالي

المعرفة المنطقية الرياضية والطريق إليها لا يتم إلا عن طريق العقل والمنطق.

وتلك المعرفة يقصد بها معرفة العلوم المتنوعة التي يسعى الإنسان لتحصليها كالعلوم الشرعية والمنطقية، وكالرياضيات والفيزياء وعلم الفلك وعلم الجيولوجيا، وجميع العلوم التي يستطيع العقل أن يبحث فيها ويتعلمها ويستنبط من مسائلها واستمدادها، ويستطيع أن يعارض ويناقش فيها أهل تلك العلوم، وذلك العلوم تختلف عن العلوم الغيبية أن هذه العلوم يستطيع العقل أن ينتج فيها فكراً جديداً، وأن يبدع في فهمها

وإدراكها بخلاف الأمور الميتافزيقية الغيبية التي لا يستطيع العقل التوصل إليها أصلاً للبحث فيها ولا ينتج فيها أي فكر جديد.

النوع الثالث من أقسام المعرفة عند حجة الإسلام الغزالي المعرفة التجريبية

والطريق الوحيد إليها الحواس وهدفها الظن لا اليقين. وهذه المعرفة قائمة على التجارب والمحاولات تقبل النقض والتغير باختلاف الأشخاص والأماكن والأحداث وهي لا تفيد إلا الظن والشكوك، ولا تفيد اليقين والثبوت لأنها قائمة على التجربة، والتجارب تقبل الاختلاف والتعارض دائما وتتمثل تلك بالنظريات العلمية التي يضعها أهل التخصص والفن، وتتمثل أيضاً في بعض الأحكام الفقيه، فربما يصدر الفقهاء حكماً على شيء ما فيطرأ عليه متغير فينفون الحكم عنه، وأمثله ذلك كثيرة:

فالإمام الشافعي عليه رحمة الله (ت **204**هـ) أسس مذهبه في العراق وبعدما جاء إلى مصر ورأى حال وعرف أهل مصر قام بتغيير ذلك المنهج وأسس مذهبه الحديث، فيقولون الآن قال الشافعي في القديم؛ ويُقصد به مذهبه الذي أسسه في العراق، وقال الشافعي في الحديث؛ وهو مذهبه الذي أسسه في مصر، فنرى أن ذلك العلم هو علم ربما يتغير بتغيير الأماكن.

ونرى أمثلة أيضاً في ذلك في الأزهر الشريف وفي دار الإفتاء المصرية.

فعند ظهور القهوة ظهرت في اليمن وشاع الناس عنها أنها تُسكر وتذهب العقل، فقام الأزهر الشريف المعمور ودار الإفتاء المصرية العريقة بتحريم القهوة.

وهناك قصة عجيبة عن حُكم شرب القهوة، حيث إنها ظلت مُحرمة نحو **400** عام، بعد أن اكتشفها رجل صوفي من اليمن هو علي بن عمر بن إبراهيم الشاذلي في العام **828** للهجرة، وقطف قشرة البن وتناولها ليسهر ذاكراً لله تعالى.

وعن قصة تحريم القهوة يقول الدكتور علي جمعة، مفتي الجمهورية السابق، إن القهوة حُرمت نحو **400** عام ظناً من الفقهاء أنها مُسكرة، موضحاً أنّ القهوة في اللغة العربية اسم من أسماء الخمر، وعندما سألوا بعض المشايخ عن رأيهم فيها أكدوا حرمانيتها باعتبارها مُسكرة.

وظهر مشروب القهوة في مصر لأول مرة في رواق طُلّاب اليمن بالأزهر، الذين كانوا يتناولونها لتساعدهم على الدراسة والاستيقاظ والذكر، وشيئاً فشيئاً انتشرت القهوة بين طُلّاب الأزهر في العقد الأول من القرن الثامن الهجري. وقُوبِلَت القهوة بمعارضة شديدة من رجال الدين أمثال الفقيه أحمد بن عبد الحق السنباطي، الذي قاد حملة ضد المشروب الجديد، بعدما تلقى سؤالاً حول شرب القهوة، وكان نص السؤال: «ما رأيكم في المشروب الذي يُدعى قهوة، والذي يزعم بعضهم أنه مباح، رغم ما ينجم عنه من

نتائج وعواقب فاسدة؟»، فأفتى الشيخ السنباطي بتحريمها، وعارضها المجتمع المصري بشدة. وأدت خطبة أحد الموالين للشيخ السنباطي عن القهوة إلى هياج شعبي ضدها في منتصف عام **1572**. وحرمها الخطباء من على المنابر، مما دفع الناس إلى تحطيم المقاهي، وشهدت مصر حالات شغب من أجل القهوة، كما شهدت مكة واليمن وإسطنبول والبوسنة أحداثاً مشابهة بسبب التباين بين فتاوى إباحة القهوة وتحريمها، إلى أنْ اختبر شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في القرن التاسع الهجري تأثير القهوة على جماعة مِمَن يتعاطونها، فأحضر البُن وأمر بإعداده، وأمرهم بشربها، ثم فاتحهم في الكلام فراجعهم فيه ساعة، فلم يَرَ فيهم أي تأثير، فراجعهم فيه ساعة أخرى فلم يرَ مِنهُم لا تغيراً ولا فُحشاً، فأفتى بحِلها. وصارت مُباحة حتى قدمها أهل الخير في ساحات الحرمين والمساجد.

فيتضح مما ذكرنا أن النوع الثالث من المعارف وهو المعارف التجريبية يفيد الظن لا اليقين.

العقل في القرآن الكريم

إن الذي يتتبع بالمنطق والاستقراء في القرآن الكريم يجد أن القرآن يحكم العقل ويخاطب أصحاب العقول السلمية المستنيرة.

وَرَدَ فِعلُ العقل في القرآن الكريم في تسعةٍ وأربعين موضعاً، ولم يَرِدْ بشكلِ مصدر مطلقاً، وكل أفعال العقل تدلُّ على عملية الإدراك والتفكير والفهم لدى الإنسان، ويمكن حصر هذه الأفعال بما يلي:

أ)وردَ فعل العقل بصيغة "تعقلون" في أربعٍ وعشرين موضعاً في القرآن؛ منها قوله – تعالى:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: **242**]، وقوله – تعالى –: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: **2**].

ب)ووردَ بصيغة "يعقلون" في اثنينِ وعشرين موضعًا؛ منها قوله – تعالى –: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: **171**].

ج) وورد بصيغة "يعقِلُها" مرةً واحدة في قوله – تعالى –: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: **43**].

د) وورد بصيغة "نعقل" مرةً واحدة في قوله – تعالى –: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: **10**].

هـ) وورد بصيغة "عقَلوه" مرة واحدة في قوله – تعالى –: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

2- وُروده بلفظ الألباب (ج/ لُب):

وقد وردت كلمة "الألباب" في القرآن في صفة أصحاب العقول ستَّ عَشْرةَ مرة في القرآن الكريم؛ منها قوله – تعالى –: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269].

3- وروده بلفظ النُّهَى الدال على العقل:

وقد وردت أيضًا كلمة "النُّهى" في القرآن لتدل على أصحاب العقول أيضاً، مرتين في القرآن؛ وهما: ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: 54]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: 128].

4- وروده بلفظ القلب:

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ "القلب" ليدلَّ على العقل أيضاً في إحدى دلالاته، قال – تعالى –: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: 179]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: 37].

5- وورد بلفظ الحِجْر:

ورد بلفظ "الحِجْر" ليدل على العقل مرة واحدة في القرآن الكريم، قال – تعالى -: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: **5**].

6- وُروده بلفظ الفكر الذي هو نتاج العقل:

أ-ورد بصيغة "فكَّر" مرة واحدة في قوله – تعالى -: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدثر: **18** – **19**].

ب-وورد بصيغة "تتفكَّروا" مرة واحدة أيضًا في قوله – تعالى -: ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: **46**].

جـ- وورد بصيغة " تتفكَّرون" **3** مرات؛ منها قوله – تعالى -: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: **219**].

د- وورد بصيغة "يتفكَّروا" مرتين؛ منها قوله – تعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الروم: **8**].

هـ- وورد بصيغة "يتفكَّرون" إحدى عشرة مرة، منها قوله – تعالى -: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: **3**].

فبعد عرضنا وتتبعنا للآيات القرآنية التي يخاطب فيها الله سبحانه وتعالى أصحاب النهي والتفكر والتعقل؛ يتضح لنا أن القرآن الكريم لم يهمل

العقل ولم يجعله مصدرَ تلقٍ فقط، بل إنه مصدر اختيار في بعض الأمور وتكون للعقل الاختيار الكامل والحرية المطلقة حتى يقول لصاحبه افِعل أو لا تفعل.

وقد أتعجب من البعض ممن يقولون إنّ الإنسان مسيّر ومجبر في جميع الأفعال التي يفعلها وأرى أنهم مخطئون في ذلك خطأ جماً، لأنهم يوقفون جميع وظائف العقل عن التفكير والتعقل، ويجعلون الإنسان بلا عقل ولا تفكر ولا اختيار، وأنه مُجبر على جميع ما يفعل، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أجبرنا على الفعل فلماذا يحاسبنا عليه؟

أجيب عليك يا صديقي العزيز باختصار وإيجاز.

أولاً طالما نحن نتحدث عن الإنسان فيجب علينا أولاً أن نتعرف على ذلك الإنسان.

فالإنسان هو أكرم مخلوق من جنس المخلوقات جميعاً، ولكنه في تكوينه يوجد فيه من كل المخلوقات فيوجد فيه جزء جماديّ، وجزء نباتيّ، وجزء حيوانيّ، فكل ما في الإنسان من هذه الأشياء هو مُسيّرٌ فيها كجميع المخلوقات تماماً، ولا اختيار له في ذلك، فما يوجد في الإنسان من جمادية ونباتية وحيوانية هو مُسيّرٌ فيه كسائر الأشياء ولا اختيار له في ذلك، ومثال ذلك أن أي إنسان لو قفز من مكان مرتفع فإنّ قانون الجاذبية يتحكم فيه ويسيّر بذلك كالجماد تماماً، وأيضاً الأشياء التي لا دخل للإنسان فيها، النمو فهو ينمو كالنبات تماماً ولا يوجد له في ذلك دَخل ولا اختيار، وأيضاً جميع

أجهزة الجسم كالجهاز الهضمي والعصبي والمناعي وغيره، وجميع الأجهزة التي يحتوي عليها جسم الإنسان هو مسيّر فيها كالحيوان تماماً ولا يوجد اختيار له في ذلك، وذلك من فضل الله ورحمة بخلقه.

أما ما يوجد فيه الاختيار هو العقل الذي يرجح إحدى الكفتين على الأخرى، فالله سبحانه وتعالى قد بيّن الطريق وأوضح السبيل أمام السالك وأنت من تختار أي طريق تسلك وتسير فقال جل وعلا: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [البلد:**10**]

فكلا الطريقين أمام كل إنسان أن يختار منهما ما يشاء ويسلك منهما ما يرضيه، ولكن يجب عليه أن يعلم أن المنتهى والمرجع في النهاية إلى الله تعالى، وأنّ هناك حساباً على كل فعل وقول وعمل وعلى كل شيء، فالعقل هو نقطة الاختيار بين البديلات وهو من يستطيع تمييز الأمور والحكم عليها صحة وخطأ من وجهة نظره، وعلى ذلك يكون الإنسان مخيراً في الأمور التي يكون للعقل فيها بيان واختيار، أما بقية الأمور التي لا يوجد للعقل فيها اختيار كما بينها فهو مسيّر فيها كباقي الأشياء تماماً.

العقل والروح

تعددت المناقشات الفلسفية حول وجود الله والاعتراف به، فقد يرى البعض أن العلم وكثرة القراءات الفلسفية هو الطريق الوحيد لتدليل المادي والمحسوس على وجود الله، لذلك سعى عدد كبير من الشباب للقراءة عن ماهيته وخلقه ووجوده والذات الإلهية، ولكن كل هذه القراءات باتت دون جدوى، ودون إجابة صريحة، دون أدلة منطقية توضح أين الله في عالمنا، وما هي ماهيته؟ وذلك لأن هؤلاء الشباب أغفلوا الجانب الروحاني الذي يقوم على أساسه التواصل مع الله، فالروح هي ذات معنوية قائمة بذاتها، تنفصل كل الانفصال عن العقل، فالعقل يهتم بالبحث في الماديات فقط، بينما الروح تصل إلى ما يعجز العقل عن الوصول له، ويمكن الجزم بأن العقل يتأثر بالروح والعكس ليس بصحيح على الإطلاق.

تذبذبت الركائز الدينية للشباب الذين يحاولون الوصول إلى الله، حول كونهم مسلمين بالفعل أم مسحيين، أم ملحدين، أم من الفئات اللا دينية، والحقيقة هي أنّ هؤلاء الشباب يؤمنون بوجود الله والتواصل الروحاني معه، لكنهم يريدون رؤيته، تجسيده، تلمّسه، ليس لإثبات عدم وجوده لكن للتقرب منه، إذاً فهؤلاء ليسوا ملحدين لأن الإلحاد هو عدم الاعتقاد في وجود الله، وعدم الإيمان به، وليس من اللا دينيين لأن كافة الأديان السماوية تؤمن بوجود الله، مع اختلاف كيفية التواصل معه.

1/ التأمل: فإن التأمل في خلق الله سبحانه وتعالى هو طريق واضح يدل على وجود الله؛ لأن كل شيء في الكون يدل عليه ويُوصل إليه، فلو تأملت في السماء كيف رُفعت وبُنيت بغير عَمدٍ؛ لأدركت حينها أن الله بقدرته هو الذي رفعها وأمسكها وثبتها، ولو نظرت إلى الشمس وهي تشرق في كل يوم دون أن تتخلف يوماً واحداً عن عملها؛ لعلمت أنّ هناك علةً أولى وخالقاً حكيماً استطاع بحكمته وعلمه أن يدبر هذا الكون العجيب، فكل شيء في الكون يدل عليه، لذلك يقول ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية الحكمة السادسة عشر: كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء؟ يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟!

2/ الصلاة: والصلاة من معناها أنها صلة، أي أنها تكون صلة بين العبد وخالقه، يتجرد الإنسان فيها من كل شيء ويترك خلفه كل شيء ويقف بين يدي الله تعالى بلا شيء.

فالصلاة هي القوة التي تَمدُ الروح بالغذاء، ولأن لكل شيء من مكونات الإنسان غذاء معين، فإن الروح لا يوجد لها سوى مصدر أساسي وحيد الذي يمدها بالغذاء والقوة وهو المصدر الإلهي، والعلة في ذلك أننا لم نتعرف على ماهية الروح ولم نتمكن من توجيها، وكثيراً من الشباب الحائرين عندهم ضعف وإرهاق في الجانب الروحي لا يستقيم هذا الجانب إلا باستقامة الصلاة، إن الصلاة الخاشعة الخاضعة عبارة عن صلة فريدة وعلاقة حقيقية تقوم بين العبد وربه، يقف العبد فيها بين يديّ ربه مكبراً معظماً له، يتلو كتابه ويسبحه ويمجده، ويسأله ما شاء من حوائجه الدينية والدنيوية، فهي صلة ومظهر علاقة حقيقية بين الخالق والمخلوق، فالصلاة استجابة لغريزة الافتقار والضعف والدعاء، وغريزة الالتجاء والاعتصام والمناجاة، والاطراح على عتبة القوي الغني الكريم الرحيم السميع المجيب (الأركان الأربعة للندوي).

وقد شرع افتتاح الصلاة بالتكبير، وهو لفظ «الله أكبر» تلك الكلمة البليغة الواضحة، المجلجلة المدوّية، القاطعة الفاصلة، التي يخشع أمامها

الجبابرة، ويهوي لها كل صنم، فهي شهادة بعظمة الله وكبريائه، وتحطيم للطواغيت والمتجبرين والأدعياء الذين يعتدون على ألوهية الله سبحانه وتعالى، ويريدون أن يغتصبوا سلطانه، فالعبد إذا قال: «الله أكبر» كان الله أكبر عنده من كل شيء.

الصلاة مدرسة خلقية:

إنّ الصلاة مع كونها صلة بين العبد، وربه يجني منها العبد كل خير، فهي مدرسة خلقية لها أعظم التأثير في حث الإنسان على الالتزام بالأخلاق الحميدة، وصرفه عن الأخلاق الرذيلة؛ لأنها تصرف صاحبها من حال إلى حال، ومن ذوق إلى ذوق، ومن سفاسف الأمور إلى معاليها، وقد تكلفت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ببيان هذه الحقيقة وإبرازها في أجلى صورها وأظهر معانيها.

1- قال الله جل وعلا: "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّه ِأَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ" (العنكبوت :**45**).

فالصلاة تنهى المصلي وتحول بينه وبين إتيان الفواحش والمنكرات، وتحثه على فعل الخيرات.

قال ابن عطية – رحمه الله تعالى -: وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله تعالى والتحقق من الوقوف بين يديه، وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب، صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى، فأطردَ ذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حال... فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز).

وقال فخر الدين الرازي – رحمه الله تعالى -: من معاني الآية الكريمة: أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقي ونحوه لا يبالي بما فعل من الأفعال، يأكل في دكان الهراس والرواس، ويجلس مع أحباش الناس، فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من القواد لم تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله، فإذا زادت قربته ارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان، والجلوس مع أولئك الخلان، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما، لقول الله تعالى: "وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" (العلق : من الآية **19**)

فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلاً عن الكبائر (مفاتيح الغيب).

2-قال الله سبحانه وتعالى: "إِنّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسّهُ الشّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا *إِلّا الْمُصَلّينَ *الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ" (المعارج: الآيات: **19، 20، 21 ، 22، 23**) .

الهلع: جزع واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع، فهو أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، وهلوع للتكثير، فالهلوع البخيل، الحريص، الضجور، الشحيح، الضيق القلب، الشديد الجزع (النكت) العيون، ومعالم التنزيل في التفسير، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، والجامع لأحكام القرآن).

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى -: يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: "إِنّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا"، ثم فسره بقوله: "إِذَا مَسّهُ الشّرُّ جَزُوعًا " أي: إذا مسَّه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير "وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً" أي: إذا

حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله تعالى فيها (تفسير ابن كثير).

ثم استثنى الله سبحانه وتعالى المصلين من هذه الأخلاق الذميمة، مما يدل على الأثر البليغ الذي تحدثه الصلاة في نفوس المصلين؛ لأن الصلاة غذاء روحي يعين المصلي على مقاومة الجزع والهلع عند مسه الضر، والعطاء عند حصول الخير، والتغلب على جوانب الضعف الإنساني، فقال سبحانه وتعالى: "الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ"، وقد وصف الله المصلين في السورة الكريمة بصفات بدأها بالمداومة على الصلاة، وختمها بالمحافظة على الصلاة، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات، أي: يواظبون على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، والمحافظة ترجع إلى أحوالها أي: يحافظون على أوقاتها وشروطها وأركانها وآدابها (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ومفاتيح الغيب).

قال ابن جرير – رحمه الله تعالى – قوله: "إِلَّا الْمُصَلِّينَ" أي: إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئاً، فإن أولئك غير داخلين في عداد من خُلق هلوعاً (تفسير الطبري).

فكما تبين أيها القارئ الكريم أن الصلاة صلة وثيقة بين العبد وربه ولو أردنا أن نستفيض في ذلك لتحدثنا عنه فصولاً كاملة.

3/القرآن الكريم، من الوهلة الأولى عندما تستمع أو تقرأ في كتاب الله تعالى يشعر الإنسان بالسكينة والاطمئنان والارتياح الداخلي والهدوء النفسي والمعنوي الذي يحتوي كيان الإنسان وذلك ناشئ عن تأثيرات الكلمات الإلهية في نفس المومن، فترتقي روح الإنسان في المقامات وتدنو وتقترب من الله تعالى، ويبعث في النفس الشجن والتصالح الداخلي الكامل، الذي لا يستطيع أحد أن يعطي للروح والنفس هذا الغذاء إلا المصدر الإلهي الوحيد، فالقرآن له تأثير بالغ جداً على نفسية الإنسان وعلى شخصيته، فربما يسأل سائل ويقول؟

ما هي العلاقة بين ارتباط الإنسان بالقرآن الكريم ونجاحه في الحياة؟* هل التمسك بالقرآن له أثر في نجاح الإنسان في الحياة؟* ما هو دور القرآن في صقل شخصية الإنسان وتكوين شخصية ناجحة؟* ما هو دور القرآن في علاج الأمراض النفسية المستعصية ويمكن القول إن أفضل عمل على الإطلاق يمكن لإنسان أن يقوم به هو تلاوة القرآن والعمل بما فيه وتطبيق ما أمر به الله والابتعاد عما نهى عنه الله. ومن خلال تجربتي الشخصية مع القرآن لمدة تزيد عن عشرين عاماً أصبح لدي قناعة راسخة

وهي أن القرآن يؤثر بشكل كبير على شخصية الإنسان. عندما تقرأ بعض كتاب في البرمجة اللغوية العصبية أو في فن إدارة الوقت أو في فن التعامل مع الآخرين، يقول لك المؤلف: إن قراءتك لهذا الكتاب قد تغير حياتك، ومعنى هذا أن أي كتاب يقرؤه الإنسان يؤثر على سلوكه وعلى شخصيته لأن الشخصية هي نتاج ثقافة الإنسان وتجاربه وما يقرأ ويسمع ويرى. طبعاً هذه كتب بشرية يبقى تأثيرها محدوداً جداً، ولكن عندما يكون الحديث عن كتاب الله تعالى الذي خلق الإنسان وهو أعلم بما في نفسه وأعلم بما يصلحه، فإنه من الطبيعي أن نجد في هذا الكتاب العظيم كل المعلومات التي يحتاجها الإنسان في حياته وآخرته. فهو النور وهو الشفاء وهو الهدى... وفيه نجد الماضي والمستقبل، وهو الكتاب الذي قال الله عنه: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}.. [فصلت: **42**]. ويمكنني أن أؤكد لك أخي الحبيب بأن كل آية تقرؤها وتتدبرها وتحفظها يمكن أن تحدث تغييراً في حياتك! فكيف بمن يقرأ القرآن ويحفظه في صدره؟! بلا شك إن تلاوة الآيات وتدبرها والاستماع إليها بخشوع، يعيد بناء شخصية الإنسان من جديد، حيث إن القرآن يحوي القواعد والأسس الثابتة لبناء الشخصية. وسوف أذكر لكم تجربة بسيطة عن مدى تأثير القرآن على شخصية الإنسان، بل تأثير آية واحدة منه! فقد قرأتُ ذات مرة قوله تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا

وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.. [البقرة: **216**]. وقلتُ لابد أن هذه الآية تحوي قانوناً محكماً يجلب السعادة لمن يطبقه في حياته. فقد كنتُ قبل قراءتي لهذه الآية أحزن بسبب حدوث خسارة أو مصيبة ما أو أجد شيئاً من الخوف من المستقبل، لأنني أتوقع أمراً سيئاً قد يحدث، أو أمر بلحظات من القلق نتيجة انتظاري لشيء ما أرغب في تحقيقه... وهكذا مجموعة من المظاهر التي تجعل شخصيتي قلقة أحياناً. وبعد أن تأملت هذه الآية وتدبرتها جيداً بل طويلاً، وجدتُ بأن الله تعالى قد قدَّر كل شيء، ولن يحدث شيء إلا بأمره، ولن يختار لي إلا الخير لأنه يعلم المستقبل، أما أنا فلا أعلم. وهكذا أصبحتُ أنظر لكل شيء نظرة متفائلة بدلاً من التشاؤم... أصبحتُ أفرح بكل ما يحدث معي حتى ولو كان محزناً في الظاهر، وأصبحتُ أتوقع حدوث الخير دائماً ولو أن الحسابات تخالف ذلك.

الفصل الثالث صراع العقل مع النفس

بعد أن انتهينا من الحديث عن الله والعقل وبيّنا أن العقل ليس مذموماً في الإسلام وأنه مناط التكليف، ننتقل سوياً إلى الحديث عن شيء من أكثر الأشياء التي اختلف عليها العلماء والفلاسفة والمفكرون ألا وهي النفس، فكثر الحديث بشدة عن النفس البشرية ولا نستطيع أن نكذب أحداً أو نوقن بالصدق لأحد إلا ما جاء فقط في القرآن الكريم لأنه وحي من عند خالق النفس فكلمة صدق لا محالة في ذلك، أما غير ذلك لا نستطيع الحكم على الكلام بصحّة أو بخطأ لأن جميعهم لم يدركوا جوهر النفس ليتحدثوا عنها، بل إنّ كلاً منهم يصفها حسب وجهة نظره وحسب اتباعه وميوله وديانته، فنجد الفلاسفة يعرفونها بشيء ونجد فلاسفة المسلمين يعرفونها بشيء آخر ونجد أنّ المفكرين ينظرون إلى النفس نظرة مختلفة عن الفلاسفة وغيرهم يعرفوها كما يبدو لهم، والسبب وراء ذلك يا صديقي العزيز أنه لا يوجد أحد منه تعرف على كنه النفس وماهيتها منهم فالجميع يتحدث كما يرى من وجهة نظره.

ولكن عندنا مصدر واحد فقط حينما يتحدث عنها سيكون ذلك الكلام ممثل لها في الحقيقة وهو المصدر الإلهي المتمثل في القرآن الكريم، فمع

اختلاف الجميع سيبين لنا ذلك المصدر الإلهي ماهية النفس وطبيعتها وكيفية التعامل مع تلك النفس.

أولاً تعريف النفس

تعددت تعريفات النفس نظراً لتعدد وجهات النظر في ذلك فنجد من يقول: إنّ النفس هي كافة الأعضاء الخارجية والداخلية التي تكون الإنسان الحي وتجعله قادراً على التفاعل مع البيئة المادية المحيطة فيه ويستنتج من ذلك أن النفس وجسم الإنسان عنصران ماديان يتكاملان معاً ولا يتم تحقيق دور الأول إلا بوجود الثاني والعكس الصحيح.

أولى علماء النفس أهميّةً بالغةً للنفس البشرية، وجعلوها سمةً أساسيّة في العديد من نظرياتهم، ومنهم سيغموند فرويد، والفريد أدلر، وكارل يونغ، وجوردون، وكارل روجرز، وغيرهم الكثيرون، وقد عرّف كارل يونغ النفس على أنها عبارة عن محتويات تتكوّن من أمور واعية وأخرى غير واعية، ونضج النفس هو عمليّة فردية، وهدف للوصول إلى الشخصيّة الصحية، بينما ذهبت نظريّة روجرز إلى أنّ النفس هي الشخص ذاته وكيفية تحديد سلوكه وعلاقته بالعالم، وتصوّر مايو أنّ النفس كيان حيوي؛ أي إنّه شخص على قيد الحياة، ويمتلك إمكانيّاتٍ مختلفة، واعتمدت نظرية ماسلو على التسلسل الهرمي لاحتياجات النفس.

وأما النفس عند الفلاسفة فقد تباين اختلافهم فيها واشتدَّ النزاع في ماهية النفس عندهم.

وأما اصطلاحياً وخاصةً بعلم الفلسفة فقد وجد الفلاسفة القدماء مثل بلاتو وكانت والعديد من المفكرين الدينيين أنّ النفس هي الروح الخالدة والتي تتخطى المادة، بينما رفض فلاسفة أُخر مثل ديفيد هيوم هذا المعنى الميتافيزيقي وعرف النفس بأنّها ليست أكثر من مجموعة من التصورات، وعرفها دانييل دانيت بأنّها مركز للجاذبية السلبية، وعلى الصعيد الآخر فقد نظر بعض الفلاسفة نظرةً أكثر جديةً للنفس وناقشوا بشكل مطول مجموعة كبيرة من الظواهر المهمة مثل الهوية الذاتية والثقة بالنفس والتنظيم النفسي والتطوير النفسي.

وبعد أن عرضنا بعض الاختلافات في تعريف النفس سنتعرض للنفس في القرآن الكريم حيث هو الطريق الوحيد للمعرفة بالنفس.

معاني النفس في القرآن الكريم

وردت (النَّفْس) في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وتعدَّدت معانيها بحسب سياق الآيات الكريمة الواردة فيها، ومن هذه المعاني:

أولاً: النفس بمعنى الرُّوح

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: **44**]؛ أي: تتركون، ويقال: خرجت نَفْسه، خرجت رُوحه، والدليل على أن النفس هي الروح قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: **42**]؛ يريد الأرواح [**11**].

ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: **93**]، ولك أن الكافر إذا احتُضِر بشَّرتْه الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلالِ والسلاسل، والجحيم والحميمِ، وغضب الرحمن الرحِيمِ، فتتفرَّق رُوحه في جسده، وتعصي وتأبَى الخروج، فتَضْرِبهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: **93**]؛ أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذِبون على الله، وتستكبرون عنِ اتِّبَاعِ آياته، والانقياد لرسله[**12**].

ثانياً: النفس بمعنى الإنسان

أي الشخصية البشرية بكامل هيئتِها، وهي الإنسان بكامل دمه ولحمه وشخصيته، وهذا كثير وغالب في القرآن، فمِن ذلك الآيات التالية:

قال الله تعالى مخاطباً الناس عامة وبني إسرائيل خاصة، بأن يحذروا يوم الحساب ويعملوا صالحاً، وأن الإنسان يأتي ربه في ذلك اليوم فرداً ولا تنفعه شفاعة الشافعين: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: **48**]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: **145**].

وقد شاع استعمالُ النَّفْس في الإنسان خاصة؛ حيث تطلق ويراد بها هذا المركَّب والجملة المشتملة على الجسم والروح [**13**]، ويظهر هذا في غيرِ ما سَبَق، في قوله تعالى أيضًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: **33**]، والمقصود هنا الرجلُ الذي قتله موسى عليه السلام في أرض مصر؛ يعني الرجل القبطي.

ثالثاً: النفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان (العقل)

ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: **116**]؛ قال الطاهر بن عاشور في تفسيره: "والنَّفْس تُطلَق على العقل وعلى ما به الإنسان إنسان، وهي الروح الإنساني، وتطلق على الذات، والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده؛ أي: تعلم ما أعلمه؛ لأن النفس مقرُّ العلوم في المتعارف،

وإضافة النفس إلى اسمِ الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطَّلِع عليه غيره؛ أي: ولا أعلم ما تعلمه؛ أي: مما انفردت بعمله، وقد حسَّنه هنا المشاكلة كما أشار إليه في الكشاف [14].

رابعاً: النفس بمعنى قُوى الخير والشر في الإنسان

النفس بمعنى قوى الخير والشر لها صفات وخصائص كثيرة؛ منها: القدرة على إدراك الخير والشر، والتمييز بينهما، والاستعداد لهما؛ قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7، 8]، وقال سبحانه: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: 10]؛ أي: بيَّنا له الطريقين، طريق الخير وطريق الشر، وهناك إلى جانب الاستعدادات الفطرية الكامنة قوةٌ واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، فمن استخدم هذه القوة في الخير وغلَّبها على الشر، فقد أفلح، ومَن أظلم هذه القوة وجناها وأضعفها، فقد خاب[15]؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9، 10].

فالنَّفْس هنا وفي مواضع أخرى كثيرةٍ من القرآن، هي الإنسان العاقل المكلف، وهي الإنسان الذي يُتوقَّع منه الخير أو الشر، والهدى أو الضلال، ثم هي الإنسان بجميع مشخصاته جسداً ورُوحاً.

إذاً فما هي النفس؟

يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب في تفسيره:
هي أنها شيء غير الروح وغير العقل، وأنها هي الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوي، إن صح هذا التعبير، إنها تتخلَّق من التقاء الروح بالجسد، إنها التركيبة التي تخلق في الإنسان ذاتيةً يعرِفُ بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووِجدانه ومُدرَكاته، فالنفس هي ذات الإنسان، أو هي مشخصات الإنسان التي تنبئ عن ذاته، ولا نريد أن نذهب إلى أكثر من هذا، وحسبنا أن نُؤمِن بأن الروح مِن أمر الله، فلا سبيل إلى الكشف عنها؛ كما يقول سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: **85**]، وأنّ النفس جهازٌ خفيٌّ عامل في الإنسان، فهي الإنسان المعنوي، ولهذا كانت موضعَ الخطاب من الله تعالى، كما أنها كانت موضع الحساب والثواب والعقاب.[5]

تعريف النفس عند العلماء المعاصرين

ذكر العلماء المعاصرون للنفس عدةَ تعريفات؛ منها: أن النفس "هي جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة؛ إدراكية، أو حركية، أو فكرية، أو انفعالية، أو أخلاقية؛ سواء أكان ذلك على مستوى الواقع، أو على مستوى الفهم، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلهما وتبادلهما التأثير

[5] - بتصريف يسير من التفسير القرآني للقرآن، للدكتور عبدالكريم الخطيب.

المستمر والتأثر، مكونين معاً وحدةً متميزة نطلق عليها لفظ (شخصية) تُميز الفرد عن غيره من الناس، وتؤدي به إلى توافقه الخاص في حياته.[6]

فبعد عرض كل هذه التعريفات أيها القارئ الكريم يتضح لك مدى عظم الشيء الذي نتحدث عليه.

فأنا أعرف النفس وأقول: هي مجموعة من المشاعر والأحاسيس التي يشعر بها الإنسان في حياته من خلال المواقف المختلفة، والنفس تعتبر شيئاً مستقلّاً لطيفاً في داخل الإنسان.

[6] -الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف الدكتور محمود حمدي زقزوق.

أنواع ودرجات النفس البشرية

فكما تعرضنا في تعريف النفس ووجدنا خندق الخلاف قد تعمق فكذلك أنواع النفس ودرجاتها ومراتبها اختلاف شاسع بين العلماء من فلاسفة وعلماء المسلمين وغيرهم، وسنعرض ذلك إن شاء الله وسنعود أيضاً إلى المرجع الإلهي لكي يدلنا على ذلك في النهاية.

أولاً النفس في القرآن الكريم

تعرض الدستور الرباني للحديث عن النفس في مواضع عديدة في القرآن

1.النفس المطمئنة:

وهي التي اطمأنت بربها وخالقها وارتقت حتى وصلت إلى معية لله فهي ذات حضور وشهود وحال مع الله تبارك وتعالى، فصاحب هذه النفس يمتلئ بالسرور والفرح عند الطاعة وتجد في صميمها لذة للطاعة وحلاوة للعبادة لا يمكن وصفها بالقلم واللسان، وبعبارة أُخرى: (النفس المطمئنّة) هي التي تسكن إلى ربها وترضى بما رضي به، فترى نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شر أو نفع أو ضر، ويرى الدنيا دار مجاز، وما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أي نفع وضر ابتلاء وامتحاناً إلهياً، فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان، وإكثار الفساد، والعلو والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر؛ بل هو في مستقر من العبودية لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط، فنجد أن الله

تعالى يتحدث عنها ويقول: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) [الفجر: 27، 28]

وذلك هي أعلى درجات النفس وأسماها وأرقاها؛ لأن صاحبها يتلقى النور عن الله بدون واسطة.

فلربما يسأل سائل ويقول: كيف نصل إلى درجة النفس المطمئنة؟

أ/ المحافظة على الفرائض التي أمرنا الله بها، ويليها النوافل التي واظب النبي صل الله عليه وسلم عليها، ودليل ذلك أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إنّ الله قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) رواه البخاري.

ب/ مصاحبة الصالحين الأخيار، لأن مجالسة الصالحين نور على الجبين، وتدخلك معية رب العالمين، وترتقي بك إلى درجات العارفين المقربين، لأن من جالس جانس، ومن كان في صحبة الأخيار سترتقي نفسه حتى لو كانت في أسوأ حال، فنجد أن الله تعالى يقول: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ) (الأنعام – 90)

وذلك أول طرقين للارتقاء بالنفس والوصول إلى درجة النفس المطمئنة.

2/ النفس اللوامة

وهي التي تلوم صاحبها دائماً عندما يرتكب أي مخالفة شرعية، هي تلك النفس التي لا تثبت على حال واحدة، فهي كثيرة التردد والتقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله. وهي مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة، فما بالك كيف تكون في اليوم والأسبوع والشهر والعام والعمر كله، نجد ألواناً كثيرة وحالات متعددة ومتغايرة، فنجدها تذكر وتغفل، وتُقبل وتُعرض، وتلطف وتكشف، وتثيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصي وتتقي وتفجر، إلى أضعافِ أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها.

لذلك يقول الحسن البصري رحمه الله: «هي نفس المؤمن، إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً على الفعل: لِمَ فعلت هذا، وما أَردت بهذا؟ ونحو ذلك» ولكن غيره يقول: هي نفس المؤمن توقعه في الذنوب والمعاصي ثم تلومه، وهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي، فإن نفسه لا تلومه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته دون فعله.

وهناك آخرون يقولون: إن هذا اللوم للسعيد والشقي أيضاً، فالأول يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والثاني لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وطائفة أخرى فسرت ذلك على أن هذا اللوم يكون يوم القيامة، فإن كان مسيئاً لام نفسه على إساءته، محسناً لام نفسه على التقصير في طاعة الله. وحقيقة هذه الأقوال المذكورة أعلاه كلها اجتهادات المفسرين وهي كلها حق ولا تتنافى فيما بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وقد أقسم الله بها في القرآن الكريم في مستهل سورة القيامة فقال جل وعلا: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)﴾ سورة القيامة

والفارق بينها وبين النفس المطمئنة أن النفس المطمئنة لا تتقلب ولا تتحول لأنها في حالة شهود مع الله بخلاف اللوامة التي تتقلب وتتغير بتغير الأماكن والأزمان، والنفس اللوامة بمتابعتها ترتقي إلى درجة النفس المطمئنة.

3/ النفس الأمارة بالسوء

وهي النفس الحريصة على دفع صاحبها نحو مخالطة المعاصي، وتزيين الشهوات والإيقاع به في المهلكات، ومثلها ما ذكره الله على لسان امرأة العزيز: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف-53) وهذه أسوأ أنفس الآدميين.

هل يوجد فارق بين وسواس الشيطان وبين النفس الأمارة بالسوء؟

بالطبع أيها القارئ الكريم يوجد فرق كبير، فالنفس البشرية أخطر عدو للإنسان حتى هي أشد عداوة من الشيطان لأن الشيطان لا يعلم خبايا الإنسان ونقاط ضعفه، لا يعلم سبل الغواية التي يضعُف أمامها الإنسان،

غير ذلك حينما تستعيذ بالله من الشيطان يعوذك الله من هذا العدو، وإنّ الشيطان إذا أغلقت له باب يبحث عن آخر دون إلحاح.

بخلاف النفس أولاً إنها توجد في داخل الإنسان وتعلم جيداً نقاط صعف الإنسان والأشياء التي يحبها ويميل إليها، عندما تهيّئ لك معصية وتُغلق أمامها باب المعصية تظل تجمل لك لذة المعصية حتى تقع فيها لذلك نفهم الآن قول النبي صلى الله عليه وسلم، قدمنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: "مجاهدة العبد هواه" فوصف النبي صلى الله عليه وسلم جهاد النفس بالجهاد الأكبر أي أنه أكبر من جهاد العدو في الحرب، وحقاً صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن من استطاع أن يتحرر من قيود نفسه وهواه ويتقوى عليهم فهو يستطيع أن ينتصر علي أي شيء بعد ذلك، فقد انتصر على نفسه من كثرة الإلحاح وكثرة التزيين للمعصية.

كيف تجاهد نفسك؟

أولاً الاستعانة بالله سبحانه وتعالى وتفويض الأمر إلى الله تعالى وإظهار العجز والانكسار بين يدي الله لأن كل شيء بيد الله هو من يستطيع التغيير والتحويل والتبديل والهداية والتضليل فلا يقع شيء في الكون إلا بأمره وإرادته، ولذلك وَرد والعهدة على من قال وُرد: أنّ سيدنا أبا اليزيد البسطامي عليه رحمة الله وكان رجلاً من الصالحين الأولياء الكُمل العارفين يقول: جاهدت نفسي أربعين سنة أقودها في طريق الله فأبت،

فقلت: يا رب كيف الوصول إلى طريقك؟! فنودي في سره أي في منامه وقيل له: يا أبا اليزيد إذا كانت نفسك تأبى أن تصل إلينا فاترك نفسك وائْتِ، أي اترك كل شيء نفسك تزينه لك يا أبا اليزيد واترك علمك وفهمك ومالك وكل ما لديك وائْتِ إلينا من باب الذل والافتقار والفقر والفاقة، فأول طريق هو طريق الانسياق والإخضاع لجناب الله تبارك وتعالى.

ثانياً مخالفة النفس فكما قلنا: إنّ دائماً النفس الأمارة بالسوء تأمر صاحبها بالمعصية، فالعبد المؤمن هو من يخالف نفسه ويتصدى لها ويقف أمامها معارضاً، فإنّ الله تعالى قد بيّن لعباده أن طريق النجاة من النار والفوز بالجنة إنما يكون بمجاهدة النفس ومخالفة هواها وعدم الانجرار وراء الرغبات والشهوات، فقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عن الْهَوَىٰ. فَإِنّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} (النازعات:**40-41**).

فينبغي على العاقل اللبيب أن يكون لهواه مسوّفاً، ولعقله مسعفاً، وأن ينظر إلى ما تسوء عاقبته فيوطّن نفسك على مجانبته، فإنّ ترك النّفس وما تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها، فيصبر على الدّواء كما يخاف من الدّاء.

ومما يعين العبد على مخالفة الهوى معرفته بربه وخوفه منه وحذره من عقابه وتفكره فيما هو مقبل عليه من من أهوال عظام من نزول الموت بساحته ولبثه في قبره وبعثه ونشوره ووقوفه بين يدي ربه للحساب وانصرافه إما إلى جنة وإما إلى نار. إن العبد الذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية

ربه، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة، فظل في دائرة الطاعة.
والخوف من الله عزّ وجلّ هو الحاجز الصلب أمام عواصف الهوى العنيفة، وهو الذي يكبح جماح النفس إلى المعصية، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل معصية، وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقل إن يُؤتَى الإنسان إلا من قِبَل الهوى.

وحقيقة الأمر أنهما طريقان لا ثالث لهما، إما طريق الاستقامة والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وإما السير في طريق الهوى والغفلة، قال الله تعالى: {ثُمّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتّبِعْهَا وَلَا تَتّبِعْ أَهْوَاءَ الّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الجاثية: **18**).
وقال: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} (الكهف:**28**).
وقال سبحانه: {يَا دَاوُودُ إِنّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقّ وَلَا تَتّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّه إِنّ الّذِينَ يَضِلّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّه لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} (ص: **26**).

قال ابن القيم رحمه الله: (مخالفة الهوى تقيم العبد في مقامِ مَن لو أقسم على الله لأبرّه؛ فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه، فهو كمن رغب عن بَعْرة فأُعطي عوضها دُرّة، ومتبع الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء ما لا نسبة لما ظفر به من هواه البتة).

وقد ضرب لنا إبراهيم ابن أدهم عليه من الرحمة أروع الأمثلة في مجاهدة النفس والعهدة على راوي هذه القصة، أن إبراهيم ابن أدهم كان يمشي مرة في السوق فوجد رجلاً يبيع تيناً، فاشتاقت نفسه إلى أن يأكل التين فوضع يده في جيبه فلم يجد مالاً فخلع أعزكم الله نعاله وذهب بها إلى البائع وقال له: خذ هذين النعلين وأعطني بهما تيناً! فقال له البائع: أمجنون أنت يا رجل؟ أنا لا أبيع التين بالنعال ولكن أبيعه بالمال، فقال إبراهيم ابن أدهم: وأنا أشتهيه فخذ هذين النعلين وأعطني بهما تيناً، فأخذ البائع هذين النعلين وضربه بهما، فجاء رجل من بعيد يعرف إبراهيم ابن أدهم وقال للبائع معاتباً: كيف تضرب إبراهيم ابن أدهم بالحذاء والنعال وكان البائع لا يعرفه، فأراد البائع أن يصالحه وأن يطيب خاطره فحمل التين وذهب إليه وقال له: خذ من التين ما تشاء! فأعطاه إبراهيم ابن أدهم درساً يكتب بماء الذهب على صفحات من نور وقال له: يا بائع التين إن إبراهيم ابن أدهم حرّم التين على نفسه إلى يوم الدين.

إبراهيم ابن أدهم ببساطة نفسه أذلته بشيء زائل من متاع الدنيا فأراد إبراهيم أن يؤدبها فحرمها من هذا الطعام إلى يوم القيامة، وذلك هو شأن

الصالحين يخالفون أنفسهم وأهواءهم لأنهم يعلمون حقيقة تزيل النفس لهم، فنجد الإمام البوصيري يقول في البردة الغراء المباركة:

والنفس كالطفل إن تهملهُ شبَّ علـــى
حب الرضاعِ وإن تفطمهُ ينفطـــمِ
فاصرف هواها وحاذر أن توليـــــــه
إن الهوى ما تولى يصم أو يصمِ
وخالف النفس والشيطان واعصهمـــا
وإن هما محضاك النصح فاتَّهِـــمِ
ولا تطع منهما خصماً ولا حكمـــــاً
فأنت تعرف كيد الخصم والحكـــمِ

فمخالفة النفس هو سبيل الفلاح والهداية دائماً، وما وجدنا أحداً يخالف نفسه وهواه إلا ارتقى في درجات الولاية والصلاح وأصبح في حالة من الاتزان النفسي التي تغمر الإنسان بالسعادة؛ فيعلوا بها درجات عند الله.

الصراع الداخلي بين النفس والعقل

إنّ الصراع القائم بين النفس والعقل هو صراع دائم لا يتوقف بين نفس تريد وتبغي الملذات، وبين عقل حكيم يفكر بالحكمة والمنطق، فهما دائماً في صراع لا يتوقف إلا بموت الإنسان، وذلك حكمة الله تعالى في خلق الإنسان فهو أوجد له طريقَ الهداية وطريق الضلال وأوجد نفساً في داخل الإنسان تدفعه إلى الشهوات وملذات الدنيا وأوجد فيه عقلاً يفكر ويحكم ويرجح بين البديلات.

الجهاد جهادان كما هو معروف، فهناك الجهاد الأصغر، وهناك الجهاد الأكبر، ولعل وصف النوع الثاني بالأكبر راجع إلى كونه جهاداً للنفس الأمارة بالسوء، وإلى كونه جهاداً مستمراً باستمرار حياة الإنسان، ومعاناة لا هوادة فيها، مما يجعله دائماً في امتحان متواصل، وهو امتحان يقوم على ثلاثة معايير كبرى، قد يخرج منها الإنسان ناجحاً متسامياً عزيزاً أبياً، وقد يخرج منها مندحراً مخزياً، إنها الثالوث المتمثل في: السلطة والمال والمرأة أو الجنس، ما لم يحصن نفسه عقدياً بما يحول بينه وبين هذه الموبقات التي قد تدفع به إلى الهاوية، إن هو ضعف أمام سحرها وبريقها الخادع. فإن شئت أن تمتحن شخصاً فمكنه من إحدى هذه المغريات أو أكثر.

ومدار الأمر في هذا الامتحان على الصراع بين النفس والعقل، وهما قوتان طبيعيتان ركبهما الله عز وجل في الناس ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فالنفس دافعها الشهوة، وهي أمارة بالسوء، والعقل دافعه الحكمة، وهو

حافز على العدل، فمن أطاع نفسه مال مع نزواته، وكان ما كان من النتائج التي تتحدد خطورتها أو بساطتها بالدور الذي يقوم به هذا المغلوب على أمره، وبالمهمات المسندة إليه في المجتمع، وبما هو موكول إليه في صنع القرار أو تنفيذه، ومن أطاع عقله مال إلى العدل والحكمة، وقهر النزوات وقمع الشهوات، فكان ما كان من النتائج الباهرة التي تسمو به بين الناس وترفع مجتمعه بين المجتمعات، وتجعله بانياً موفقاً ناجحاً في امتحان الجهاد الأكبر.

إذا كان انتصار النفس دافعاً إلى قبح المعصية، وكان انتصار العقل باعثاً على السمو والاتزان والعدل، فإن الأمر ليس عشوائياً أو متروكاً للمصادفة، ولما في نفس كل فرد من نوازع وطبائع، وإنما هو مرتبط بالتربية، والتربية البناءة في حاجة إلى الرياضة وصحة المعرفة وحسن الاختيار وصواب التمييز: ماذا نريد أن نكون؟ وأي نوع من المواطنين نحتاج؟

وهذا نص نختاره في هذا السياق، وهو عبارة عن نفحة من نفحات المفكر ابن حزم، تدعونا إلى التأمل في مكوناتها وطبيعتها وآفاقها، وهي مستمدة من كتابه "طوق الحمامة" الذي ألفه في الحب الذي يجمع بين الناس، ويربط بين الإنسان وربه، والنص من الباب الذي جاء تحت عنوان: (باب قبح المعصية)، فلنقرأ ولنتأمل ولنفكر ملياً، ثم نختار ونحكم ونميز ونتساءل: أي السبيلين أصلح وأنفع وأجدى؟ وهل ما يشهده العالم اليوم من خروقات واعتداءات وتجاوزات وتطاولات باسم محاربة الداء بالداء إلا نتيجة حتمية

لغلبة وطغيان نزواتها واستفحال شهواتها وتعامي البصائر عن نور العقل وضابط العدل؟ فكيف نحد من هذا الجموح المستشري هنا وهناك؟ أبإفساح المجال للنفس وما تريد وتشتهي من مال وبنين وسلطة وسيادة وتحكم و.... و....؟ أم بالانضباط وتحكيم العقل وطلب العدل بموضوعية ونزاهة وشفافية، وحقن للدماء إلا بالحق وصيانة للأموال، وحماية للنفوس إلا بالعدل. يقول أبو محمد علي بن حزم رحمه الله تعالى: "وكثير من الناس يُطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم، ويتبعون أهواءهم، ويرفضون أديانهم، ويتجنبون ما حض الله تعالى عليه ورتَّبَه في الألباب السليمة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى ويخالفون ربهم، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة فيواقعون المعصية في حبهم. وقد علمنا أن الله عز وجل ركَّب في الإنسان طبيعتين متضادتين:

ـ إحداهما: لا تشير إلا بخير ولا تحض إلا على حسن ولا يتصور فيها إلا كل أمرٍ مُرضٍ، وهي العقل، وقائده العدل.

ـ والثانية: ضدّ لها لا تشير إلا إلى الشهوات، ولا تقود إلا إلى الردى، وهي النفس، وقائدها الشهوة. والله تعالى يقول: {إن النفس لأمارة بالسوء} وكنى بالقلب عن العقل فقال: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}، وقال تعالى: {وحبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} وخاطب أولي الألباب.

فهاتان الطبيعتان قُطبان في الإنسان، وهما قوتان من قوى الجسد الفَعَّالِ بهما، ومطرحان من مطارح شُعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العُلْوِيَّيْن. ففي كل جسد منهما حظّه على قدر مُقابلته لهما في تقدير الواحد الصمد، تقدّست أسماؤه حين خلقه وهيأه. فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان وقمع عوارضه المَدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل، وإذا غلبت النفسُ العقلَ عميت البصيرة، ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح، وعظم الالتباس وتردَّى في هُوَّة الرَّدى ومَهْواة الهلكة، وبهذا حسن الأمر والنهي، ووجب الاكتمال، وصح الثواب والعقاب، واستحق الجزاء.

والروح واصل بين هاتين الطبيعتين، ومُوصِّل ما بينهما، وحامل الالتقاء بينهما، وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحة المعرفة ونفاد التمييز (انتهى كلام ابن حزم).

فذلك الصراع هو صراع أبدي لا ينتهي أبداً ولا يتوقف ما دامت الروح تسري في الجسد. وصراع النفس مع العقل يظهر عند شهواتها، فإنها إذا تمكنت في النفس، تعاملت النفس مع العقل بمقدار ما لديه من علم وخبرة وإيمان، وتسعى للتحايل عليه حتى تحقق مرادها، ومداخلها حال قوة الإيمان غير مداخلها حال ضعف الإيمان، وإذا عجزت عن تحقيق رغباتها بالخطأ الصريح مزجت الخطأ بشيء من الصحة.

ومن صور الصراع بين النفس والعقل حينما تشتهي النفس معصية ما وتبغي فعلها وتهيئ الإنسان اللذة فيها، مع العلم أنك لو استحضرت العقاب على المعصية وما تفعله هذا المعصية بقلبك لا توقفت عنها مباشرة لامتنعت عن فعلها لأنك حكمت العقل الحكيم الذي يفكر ويحلل ويستنبط فانتهيت عن المعصية، والسبب في وقوع المعصية أنك تغافلت عن العقاب عليها ففعلتها، وهناك صور عديدة للصراع النفس والعقل لكن أبرزها هي الشهوات والملذات التي تريدها النفس. انتهى.

****

الفصل الرابع صراع العقل مع القلب

تعريف القلب

القلب: يطلق لمعنين المعنى الطبي الفسيولوجي، وتقصد به قطعة اللحم الصنبورية، في الجانب الأيسر من الصدر. وهو المشتمل على الأذينين والبطينين وما يتعلق بهم من الشريان الأكبر والوريد الأكبر ويعتبر هذا العضو من أعضاء الكائن الحي فهو لا يكف خفقانه طول الحياة، فما دام الإنسان أو الحيوان على قيد الحياة فإن القلب لا يتوقف عن دقاته وإذا وضعت يدك الآن على صدرك في الجانب الأيسر تحت ثيابك فستشعر بضربات منتظمة، مع أن الناس يعرفون ظاهرة ضربات القلب منذ قرون طويلة مع العلم أنهم لم يعرفوا ماهية هذا العضو حقيقة إلا على يد طبيب يدعى هارفي.

وإن كانت بعض المراجع العربية وبعض المرجع الإفرنجية تصف ابن النفيس العربي أنه أول من تصرف في ماهية القلب. وعندما قدم هارفي بحوثه حول القلب لم يصدقه العلماء حينذاك إذ قال: إن القلب هو مضخة فعلية وظيفتها دفع دم الحياة حول الجسم، بلا توقف من جميع الأوعية الدموية.

وعلينا أن ندرك أنه يوجد في أجزاء الجسم عدد لا يحصى من الأنابيب الصغيرة التي يتدفق فيها الدم حاملاً الطعام والمواد الأخرى إلى جميع خلايا

العضلات الصغيرة والعظام والجلد وما إليها. وهذه الأنابيب الصغيرة أو الأوعية الدموية كما أسميها من نوعين مختلفين في بعضها سميك بعض الشيء وقوي يعرف باسم الشرايين في اتجاه واحد. مثال ذلك الشريان الذي يجري في الذراع إلى أطراف الأصابع. وفيها تتسق الأوعية الدموية حتى لا نستطيع رؤيتها إلا تحت أجهزة المكروسكوب. وكان هذا الجهد الذي وصل إليه هارفي في القرن السابع عشر الميلادي مدهشاً للغاية، لأن اكتشاف ميكروسكوب قوي إلى درجة رؤية تتيح أن نرى الشعيرات الدقيقة جداً أمر مدهش للغاية الدم إن الشعيرات الموجودة في الأصابع وفي أطرافها ينقل إليها الدم في الشرايين، وينقل منها الدم في الأوردة. والأوردة ليست كبيرة كالشرايين كما أنها لا تشبهها في قوتها ولا سمك جدرانها. ويتدفق في اتجاه مضاد للشرايين عائد للقلب الذي يسحبه من الأوردة لتوزيعه ثانية إلى أجهزة الجسم بعد إجراءات كيميائية وبعد تنقيته في الرئتين..

والقلب عضلة قوية جدّاً وهي شديدة التعقيد، ولكن يسهل شرحها لطالب الطب ولو أمكن أن نرى القلب مفتوحاً لرأينا الأجهزة الآتية. الشريان الرئوي، والأوردة الرئوية، التي تقوم بحمل الدم إلى الرئتين لتنقيتهما وإعادتهما للقلب، ثم الأذين الأصغر والمصراع التاجي، والبطين الأيسر، والجدار العضلي للقلب، والوريد الأجوف الداخلي، والأورطي. والصمام الأورطي والأذين الأيمن والبطين الأيمن والوريد الأجوف السفلي عندما يتقلص البطين يدفع الدم إلى الأورطي بقوة عنيفة فيتدفق الدم في

هذا الوعاء الكبير بمعدل قدمين تقريباً في الثانية. لكن ما إن يتسلل الدم إلى الأوعية الشعرية النهائية في الأجزاء البعيدة من الجسم حتى تكون سرعة تدفقه تصل إلى حوالي **1** على **600** من سرعته عند خروجه من القلب، ولكن عودة الدم إلى القلب لا تستغرق هذا الوقت الطويل.

ومن المعروف طبياً أنه يوجد في الجسم نوعان من الخلايا العضلية، وتنتمي عضلة القلب إلى النوع المخطط مثل العضلات الموجودة، في الذراعين والساقين. ومن ثم فإن المتوقع أن بالقلب نوعاً من السيطرة العصبية، ولكن هذه السيطرة مستقلة بذاتها، ولا تتأثر كثيراً ببقية الجسم. فما دام الإنسان يعيش عيشة طبيعية ويسلك سلوكاً هادئاً، فإن قلبه يطرق بمعدل **72** طرقة في الدقيقة، ويزداد هذا العدد كثيراً عند الأطفال وإن كان لا يختلف كثيراً في الأحوال العادية. هناك مناسبات يطلب فيها من القلب أن يؤدي عملاً أكثر من المعتاد فيؤديه عن طريق الإسراع في ضرباته فحين نؤدي تدريباً عنيفاً مثل العدو أو الألعاب الرياضية تؤدي إلى تدفق الدم بسرعة أكثر من العادة فإذا كان القلب سليماً فإنه لا يلبث أن يستقر ويعود إلى نظامه العادي عند انتهاء التدريب.. والرياضي السليم هو الشخص الذي يعود إلى ضربات قلبه العادية بعد رياضته مهما كانت عنيفة ومن المعروف أن جميع أجزاء القلب لا تطرق كلها دفعة واحدة. إذ ينبغي أن يطرق الأذينان قبل البطينين، ويحتفظ الاثنان بتناسق ضرباتهما

بواسطة جهاز صغير متسم ببراعة موجود بداخل القلب نفسه، وقد قضى كثير من فطاحل العلماء سنوات طويلة يبحثون في كيفية هذا التناسق ووجد أن هذا التناسق لا يتغير مطلقاً مهما كانت سرعة النبض في ازدياد... وبعد. فليس من شأن هذا البحث أن يتكلم عن القلب من الوجهة الفسيولوجية، ولكن حب استطلاع هذا الجهاز العظيم جعلني أحوم حوله ببعض العبارات السابقة. وأنه لأخطر من ذلك بكثير، وهو نعمة مسداة من الخالق جل شأنه إلى جميع مخلوقاته طرأ، والقلب الذي أقصده من هذا البحث هو:

القلب المعنـوي:

اللطيفة الربانية ولها بالقلب الفسيولوجي تعلق. هذه اللطيفة الربانية هي حقيقة الإنسان في إدراكه، وعلمه ومعارفه، وبها خوطب من الله وكلف وبسببها جُزيَ خيراً أو شراً. وقد تحير الفلاسفة والباحثون في معرفته. إنه النور الداخلي المدرك للحقائق. وإن كان متعلقاً بالقلب الصنوبري. كما تتعلق العين بالأبصار. والمخ بالتفكير ولكن الحقيقة إن تحقيق الكيفية سر من أسرار الروح. والقرآن الكريم يجيب عن هذا السر بقوله تعالى: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) والأثر عن الرسول ﷺ إنه لم يتكلم عن الروح متفنى عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عنها فأمسك النبي ﷺ ولم يرد لهم، وما

دام الرسول ﷺ لم يتكلم فيها فأولى بنا ألا نتكلم في كنهها. فلن نستفيد من هذا الكلام إلا التخبط والزندقة، التي ذهب إليها القائلون بأنهم علماء الأرواح.

وعلى ذلك إذا أطلقنا لفظ القلب أردنا هذه (اللطيفة الربانية) لا الجهاز العضوي وكثيراً ما تطلق كلمة القلب، ونقصد به النفس انظر إلى قول الشاعر:

قلبي إلى ما ضـرني داعٍ يكثر همـــــي وأوجاعي
كيف احتراسي من عــدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

١) فالمقصود هنا بالقلب النفس. وكثيراً ما يأتي تعبيراً عن العقل كما ورد في آيات كثيرة في القرآن الكريم. واللغة تجيز هذا فالقلب (الروحي) مصدر الإشعاع الحيوي للعقل والنفس. بما يعرف بالعلاقة السببية.

قصد بعض الباحثين بمعنى الروح (حياة البدن) فعللوها بقولهم إنها جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينتشر بواسطة العروق المنتشرة في الجسم فيفيض بأنوار الحياة ومنها الحس والسمع والشم، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت. فكل شيء في البيت بنار من هذا السراج، ذلك هو البحث الطبي أي أن الروح عندهم هي حيوية الجسم. ويقول بعضهم أنها بخار لطيف أنضجته حرارة القلب. وليس هذا البيان من غرضنا أنه غرض أطباء البدن. إنما غرضنا هذه (اللطيفة الربانية) التي

تصل بها إلى الكمال. وإلى السمر بالذات الإنسانية لترقى إلى رتبة الملائكة. ولا تنحط إلى هوة الشياطين. ذلك هو القلب الذي أعنيه وعلى ذلك فإنه سر من أسرار الله تحار فيه العقول والأفهام كما سبق تبيان ذلك النفس.[7]

فبعد أن عرضنا ذلك العرض حول ماهية القلب وأنه لا يستطيع أحد أن يدرك تلك الماهية ويبين ذلك حجة الإسلام الغزالي.

قال الغزالي: لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية، وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعنِ به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة

[7] - كتاب صراع بين النفس والعقل. د. عبد الكريم دهينة

بالآلة، أو تعلق المتمكن بالمكان، وشرح ذلك مما نتوقاه، لأن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح، وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس لغيره أن يتكلم فيه. هو باختصار من إحياء علوم الدين.

فبعد أن أدركنا أنه لا يوجد أحد يدرك ماهية القلب سننظر إلى حديث القرآن عن القلب:

أمَّا القلب الصنوبري، فقيل إنه سبع طبقات هي:

1-الصدر: وهو محلّ الإسلام ومحل الوسواس، والحفظ والذاكرة.

2-القلب: وهو محل الإيمان، والتعقّل، والسمع والبصيرة.

3-الشغاف: وهو محل محبة الخلق.

4-الفؤاد: وهو محل رؤية الحق.

5-السويداء: وهي محل العلوم الدينية.

6-مهجة القلب: وهي محل تجلي الصفات.

7-حبة القلب: وهو محل محبة الحق.

وأدلَّة كلّ طبقة:

{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} [الأنعام: **125**].

{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: **7**].

{قَدْ شَغَفَهَا حُباً} [يوسف: 30].

{مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: 11].

{لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا} [الأعراف: 179].

{وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: 11].

والقلب يطلق على أمرَين هما:

الأول: تلك المضغة الصنوبرية التي خلقها الله – تعالى – في جوف ابن آدم، وهي على هذا المعنى جزء من عالم الشهادة، كما هو معروف في علم الطب العضوي.

والثاني: تلك اللطيفة الروحانية التي لا يعلم أحدٌ بحقيقتها، وهي على هذا المعنى جزء من عالم الغيب.

بهذا تتجلى في هذا الإنسان مكوناته المادية والروحية، فهو قبضة من طين، ونفخة من روح. وفي حديث النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – جمع المعنيين: (ألا وإن في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب).

قال ابن حجر أي: قدر ما يُمضغ، وعبَّر بها هنا عن مقدار القلب في الرؤية.

فالإنسان لحم ودوْرة دموية، وهو مخلوق خلَقه الله بيده، ونفخ فيه من رُوحِه، وجعل له هذا القلْب الصنوبري سبباً من أسباب الحياة، ومركزاً للفؤاد واللبّ والتعقُّل متمركِزاً به، فالقلب هو رئيس الجسم بنصّ الحديث،

وصلاحه بصلاح معتقده وإرادته وقصده، وكلها حكمها للتعقل؛ فلزم أن يكون متمركزاً به.

وحيثما ذكر القلب في القُرآن الكريم فإشارة إلى التعقُّل والتعلُّم، وحيثما ذكر الصَّدر فإشارة على ذلك وإلى سائر القوى من الشهوات والهوى والغضب ونحوها، فالقلب موضع الشعور والأهواء والعقيدة والوجدان، والعقل والرأي؛ قال تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا} [الأعراف: **179**]، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} [الحج: **46**]، فهو محلّ العقْل والفقْه والبصيرة والإرادة والسكون، وهو رئيس البدن وخالص الروح الإنسانية؛ لذا قال أبو حامد الغزالي: "هو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب"، فالقوَّة المدركة بالقلب الصنوبري تسمَّى قلباً.

والقلب يطلق على معنيين في القرآن.

أوَّلها: العقْل، وذلك في مثل قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} [ق: **37**]؛ أي: قلب زكيّ حي ذكيّ، يتذكَّر إذا سمع كلام الله، وإلا فوجوده من عدمه سواء؛ لأنه معطل عن جانبه المعرفي والإرادي، قائم بدوْرِه الجسماني فقط، وهذا شائع في استِعمالات العرب في حال من لا يتَّعظ.

الثاني: الرأي والتدبير، {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [الحشر: **14**]، وذاك سبب شقاقِهم؛ لأنَّ نواياهم متضادَّة، وتوجهاتهم متناقضة.

الثالث: حقيقة القلب الذي هو في الصَّدر؛ {وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: **46**].

وهذا كله يناقض النظرية القائلة بأنَّ العقل وظيفته الإرادة والتفكير وعملياته، والقلب وظيفته العاطفة والأحاسيس الوجدانية، فلا أساس علمي ترتكز عليه هذه النظرية يمكن الركون إليه، فضلاً عن أن يعتقد ويتبنَّى. وخلاصة المسألة حول مفهوم القلب هي: القلب له دلالتان:

الأولى: هي الجارحة الصنوبريَّة الجسمية، وهذه لم ترِد في القرآن الكريم.

الثانية: قوَّة الجارحة، وهي اللطيفة الربانية الموجودة به، وهي عبارة عن التعقُّل وجميع آلياته من تفكّر وتدبّر ونظر وإدراك، وهذا هو الجانب المعرفي في القلْب.

وقد يطلق على القلب عقلاً، مثْلما أطلق على الأذن السمع، فسمِّيت الجارحة "الأداة" بوظيفتها، وقد تذكر الجارحة والمراد وظيفتها، خاصَّة في القرآن؛ لأنَّه لم يورد الأدوات من الناحية التشريحية بل من النَّاحية الوظيفية فقط، غير أن العقل هو أحد القوى الإدراكية لا كلها؛ فهناك الفكر والذاكرة والحافظة والفهم وغير ذلك.

كما أنَّ للَّطيفة الربَّانية الجانب الثاني وهو العاطفة والوجدان، من شهوات وهوى، فللقلب جانبان هما العقل وهو المانع، والهوى وهو المريد، وينتج عنهما الإرادة التي يتولَّد بعدها العزم، فيصدر القلب الأوامر للأعضاء بالجسم؛ كيما تنفذ تلك الإرادة بعد تداولها بين العقل والعاطفة، وهنا نريد بالعقل المعلومات الكامنة بالقلب والعمليات العقليَّة معاً، فالقلب هو أداة وظيفتها المعرفية التعقل كما أن الأذن أداة وظيفتها المعرفية السمع، والعين أداة وظيفتها المعرفية البصر.[8]

*الحيرة بين العقل والقلب

حروب متتالية منذ نشأة الإنسان بين القلب والعقل، فالعقل يفكر ويحلل ويرجح، والقلب يحب ويكره ويتحكم بالمشاعر والأحاسيس التي بداخل الإنسان، وعلى هامش ذلك الصراع تُبنى شخصية الإنسان وتصدر كافة الأفعال وفقاً لتلك القوانين، قوانين العقل والقلب معاً. وذلك الصراع هو صراع أبدي لا ينتهي إلا بموت الإنسان، وغالباً ما يكون في الحب فالقلب يريد الحب والمشاعر والأحاسيس حتى وإن كانت تؤذي صاحبها، والعقل يرفض ويفكر لأن ماهية العقل التفكير والتعقل وهو مسؤول على الجانب

[8] بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ج4: ص 289

المنطقي، فلذلك هما دائماً في حيرة وسنتأمل أسباب تلك الحيرة لاحقاً بعد أن نبينها.

يقال بأنّ الحَيرة هي: (صراعٌ بن قلبٍ يريد وعقلٍ يرفض)، والعقل هو قوة إدراكية، لها خاصيّة التمييز والإدراك والمعرفة، وهو بمثابة الحَكم والموجّه للإنسان، وذلك للحفاظ على ذاته، وإرشاده للطرق السليمة؛ التي تضمن له السلامة في البدن والنفس والمال، بينما القلب هو محلُّ الهوى والغرام والعِشق، وله سلطانٌ كبير على النفس الإنسانيّة، ويحاول أنْ يأخذ السيطرة والتوجيه من العقل، ويحاول دائماً أنْ يزيّن للعقل الأمور، ويدفع إليه بالأماني والغرور، ويزخرف له خياراته التي يريدها، وحينها يبدأ الصراع المرير؛ الذي يأخذ صِفة الحَيرة!!

لديك ابنٌ أو ابنة؛ يرغب أحدهما أو كلاهما أمراً ما، فيمارسان عليك ضغوطاً هائلة، فتستعمل معهما العقل والحكمة والرشد، حتى يبتعدان عن هذا الخيار؛ فتصيبك الحيرة لما وصلت إليه حالهما، وقد سيطر الهوى والقلب على إراداتهما، ولم يعودا يستجيبان لكلّ نداءاتك ومحاولاتك؛ فتحاول استنهاض العقل عندهما حتى يستفيق من غفلته، فتفاجأ بأنّ دخاناً كثيفاً قد غطّى على عقليهما، ولم يعدْ يرى ولا يسمع، وإذا بكلّ مرتكزات الحِكمة ومبادئها قد مُسِحت، وحلّ مكانها ضبابٌ كثيفٌ من اضطرابٍ في الحجج والبراهين، وحينها لا يعود لديك من خيار أمام هذه الحيرة القاتلة سوى أنْ تُرخي أسلحتك، وتستسلم لهوى القلب والعاطفة

الذي أخذ منهما كلّ مأخذ، ثم تترك لهما أنْ يفعلا ما يشاءان ويرغبان، وتترك لقلبيهما يقوداهما إلى مصيريهما المحتومين!!

لديك قريبٌ أو صديق أو زميل؛ يمارس عليك ضغوطاً هائلة حتى تستجيب لنصائحه وإرشاداته؛ ويبذل قصارى ما يستطيع من وسائل الإقناع والترغيب، فتردّ عليه بأنّك غير مقتنعٍ بما يورده إليك من حجج؛ لأنّها لا تتوافق مع عقلك، الذي لا يستطيع تقبّلها، ولا يرغب في حدوثها... وقد تكون زوجتك التي تُرهقك، وتضيّق عليك كلّ السبل للخلاص من إلحاحها وإصرارها؛ فتهرب منها ذات اليمين، فتأتيك من ذات الشمال، وتعاود وتكرّر ما يجول في قلبها من رغبة، بينما تحاول أنت أنْ تدفعها عنها، فتصرّ وتصرّ؛ فتستجيب لقلبها، وتلغي عقلك وتمضي معها وأنت مغمض العينين... والويل كلّ الويل إذا عاتبتها أو أنّبتها أو وبختها لأنّها أجبرتك على خيارٍ نهايته السيئة معروفة!!

وقد يكون الأمر فيك ومنك، ويكون الصراع بين قلبك أنت مع عقلك، فقلبك يهوى ويحبّ ويرغب في حاجةٍ ما؛ تجلب لك المتعة والشَهْوَة واللَذَّة، فيأبى عقلك تذوّقها لأنّها تحمل معها السمّ، ولأنّها آنيّة، ولا تجلب لك سوى سعادة وقتيّة؛ سرعان ما تزول لتترك آثارها المروّعة عليك، لتكتشف بأنّ قلبك لا يرى من الأمور إلّا ظواهرها، ولا يهمّه نتائجها ومآلاتها، بينما عقلك يرى من وراء الحجب، ويعرف ما يخفيه المستقبل، وما سيؤول إليه، وحينه ترجع إلى قلبك تعاتبه وتلومه، لتكتشف مرّة أخرى بأنّه لا يفقه

اللوم، ولا يبالي بالتأنيب، ولا يهمّه التوبيخ، لأنّه مُركّبٌ على الشهوات وليس غيرها، وهو لا يحمل أيّة حصانة أو مناعة لك، وإنّما يهتمّ بلحظتك الآنيّة واللحظيّة؛ فترجع إلى عقلك لتلومه هو الآخر؛ لأنّه لم يمنعك ولم يصدّك، فيردّ عليك بأنّه لا حيلة له ولا مقدرة، لأنّ عينيه فيهما قذى، وأنّ الرؤية أمامه كانت ضبابيّة بسبب الدخان الكثيف الذي كان يرسله قلبك أمامه؛ فتقعد ملوماً محسوراً ومكسوراً؛ لأنّك ما وفقت بين عقلك وقلبك!!

ترتكب الإثم، وتقترف الذنب، وتُخطئ الخطيئة، وتجترح السيئة، لسببٍ واحدٍ هو أنّك كنت في حَيرة من أمرك، أو بالأحرى كنت في صراعٍ بين قلبك وعقلك، ولأنّك تحمل هوىً جامحاً، وشهوةً غالبة، يدفع بها القلب دفعاً، بينما لا تملك سوى عقلٍ خانعٍ وضعيفٍ، لا يستطيع تقديم الحماية والوقاية الكافيتين لك، لتجنيبك نتائج السوء التي يرشدك إليها قلبك... وهكذا تمضي الحياة في هذه الحيرة القاتلة بين هذين الجزأين المرافقين لك!! وهكذا هي أحوالك مع نفسك وفي أسرتك، وفي مجتمعك، وقد اشتعل الصراع بين القلب والعقل؛ إنْ سيطرت على قلبك، وأمنت الشذوذ من جانب ذاتك، فإنّك قد لا تستطيع الوقوف أمام نشوز وهيجان وتمرّد قلوب من هم حولك، وقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»، وأنت إذا رأيت فساد قلوب هؤلاء؛ فاعلم بأنّ أجسادهم

ونفوسهم وعقولهم قد فسدت أيضاً، ولم يعدْ من خيارٍ أمامك سوى تركهم لمآلاتهم ولمصيرهم.

أسباب الحيرة المستمرة بين العقل والقلب

1/ لأن ماهية العقل التفكير والتعقل والوصول إلى نتائج منطقية وهو المسؤول عن جانب اتخاذ القرارات ولا نحب ولا نكره بالعقل بل نفكر ونحكم وفق ما يبدو لنا.

2/ العقل هو المسؤول عن المشاعر والأحاسيس التي يشعر بها الإنسان ونحن نحب ونكره بقلوبنا، والقلب هو المُصدر الأول للمشاعر التي توثر علينا وعلى اتخاذ قرارتنا في الحياة.

فمن هنا نعرف أسباب الاختلاف بين القلب والعقل، فكلاهما يستطيع أن يحكم على الأمور لكن بحكم مختلف تماماً عن الآخر، فالعقل يحكم وفق الروية العقلية التي تبدو له ويُصدر الأحكام عليها دون الانحياز أو التأثر فقاعدة العقل هي قاعدة ثابتة غير متقلبة وبالتالي فهو يُصدر حكماً ثابتاً غالباً.

أما القلب فهو من اسمه كثير التقلب فربما يحب اليوم ويكره غداً وربما يشعر بالإيجابية ساعة وساعة أخرى ينقلب فيشعر بالسلبية، فحينما تُصدر القرارات من القلب هي تصدر من قواعد متغيرة وغير ثابتة،

وبالتالي فيبني عليها حُكماً غيرَ ثابتٍ ومتغيراً، فربما يكون مخطئاً في كثيرٍ من الأحيان، فمن هنا نشأ الخلاف بينهم لأن العقل غالباً لا يوافق على ما يريده القلب، فالعقل يُصدر قراراً وفق الرؤية العقلية التي تبدو له والقلب يُصدر قراراً وفق الروية العاطفية التي تبدو له، والإنسان في النهاية هو من يختار.

سيكولوجية اتخاذ القرارات من أهم الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان في طريقه إلى النجاح، فنجد دائماً أن من لديهم القدرة على اتخاذ القرار هم من يتصدرون للقيادة في كل مكان، وتظل السيادة لهم دائماً، وربما يخطر ببالك يا صديقي وتقول في نفسك: كم من القرارات التي اتخذتها ولم تُصبْ، وربما كانت سبب في ضياع الكثير، فذلك يا صديقي العزيز لأن الغالبية العظمى من الناس يتخذون قرارتهم حسب العواطف والمشاعر والأحاسيس، في غياب تام للعقل والمنطق، وكما نعلم جميعاً أن المشاعر والأحاسيس متغيرة وغير ثابتة، فعندما تتخذ قراراً على قواعد غير ثابتة وهي قواعد العواطف، فحتماً سيختل القرار لأن الأصول متغيّرة، مهما كانت نوعية هذا القرار، أشخاص، أو أماكن، أو أحداث، أو غيرهم، ودائماً ما يكون ذلك القرار وليد اللحظة فقط وينتهي، فتندم عليه بعد ذلك وترى أنك كنت على خطأ....

أما اتخاذ القرارات بالعقل والمنطق والفهم فغالباً ما يكون صائباً، لأن ماهية العقل ثابتة وهي التفكير والتعقل وليست متغيّرة، فالأصول الثوابت تخرج قراراً محكماً وثابتاً ومتزناً...

فخلاصة القول لا تحتكم لظلامية العواطف وتنخدع بمظاهرها، واحتكم للعقل ولقوة المنطق حتى تكون ذا قرار صائب.

***وقفة سائل**

هل القلب يُفكر؟! هل قراراتنا في الحياة تنبعث من القلب أم من العقل أولاً، أم أنها علاقة متشابكة؟! من الذي يُؤثر على مساراتنا في الحياة، القلب أم العقل؟! لماذا سُمي الإنسان إنساناً لو أخضعنا كل مواقفنا في الحياة لمنطق العقل والأعراف الاجتماعية؟! أليس في تلجيم عواطفنا، تجنٍّ على آدميتنا، وتعدٍ على مشاعرنا الفطرية؟! وإذا أقصينا العقل من محور تفكيرنا، ألا يُعتبر هذا انتقاصاً لإنسانيتنا التي تميزنا عن سائر كائنات الأرض؟!

الحياة مليئة بقصص الحب الخالدة لقياصرة وملوك ألقوا عروشهم، وتنازلوا عن حقوقهم، ورموا بكل ما لديهم من غالٍ ونفيس خلفهم، ليهرعوا نحو من شغفت أفئدتهم بهن. وهناك حكايات عديدة لأبطال غيروا تاريخ بلادهم، وقلبوا صفحات مجتمعاتهم، لكنهم وقفوا عاجزين أمام نبضات قلوبهم تجاه من أحبوا وقد نتساءل بحيرة، ما هذا النداء السحري الذي يدفع

المرء مهما كانت مكانته إلى الانسياق خلف من هوى دون تفكير في العواقب!!

معظمنا جلس مشدوهاً أمام شاشات التلفاز، عندما نقلت حفل زفاف ولي عهد بريطانيا تشارلز على حبيبته كاميلا، مُدققاً في ملامح هذه المرأة التي تجاوزت الستين، وغابت ملامح شبابها، مع هذا ظل هذا الرجل لسنوات طويلة، متمسكاً بها، بالرغم من كم الانتقادات التي نالته بعد أن تمَّ طلاقه من ديانا ومقتلها، مما دفعني إلى ترديد القول بأن الحب فعلاً يصنع المعجزات، وأن الإنسان مهما بلغت قوته سيظل يقف عاجزاً أمام "كيوبيد" الحب، ذلك الشعار الذي يُطلقونه في الأدب الأغريقي القديم.

يرى بعض العلماء أن هناك علاقة قوية بين القلب والعقل، وقد أكدها العالم بول بيرسال مؤلف كتاب "شفرة القلب" الذي قام بأبحاث على حالات كثيرة، لأناس تمت زراعة قلب لهم وتغيّرت سلوكياتهم إلى سلوكيات أصحاب القلوب المتوفاة، معتبراً أن هذا دليل قوي على أنّ كلاً من القلب والمخ يؤثر في الآخر. وأن هذا يظهر جلياً كذلك عندما يتلاقى شخصان لأول مرة، فيرسل قلب أحدهما موجات لمخ الآخر فيقع الطرفان في حب بعضهما بعضاً.

واحدة من صاحباتي علّقت ضاحكة بأن هذا يعني أن على كل زوجة أن تُحصّن مخ زوجها حتّى لا تُرسل امرأة إشارات من قلبها لتنبه مخه لوجودها

وتسقطه في حبائلها، مما يعني أنها طرق جهنمية لا يمكن أن تخُضع للمراقبة حتّى وإن أوكلت المهمة لجهاز الاستخبارات. **FBI**

قال أجدادنا قديماً في أمثالهم الشعبية: "القلب وما يريد"، قبل أن يُطلق العلماء نتائج بحوثهم. لكن إذا كان القلب هو الذي يُحدد شريك العمر، من خلال الإشارات التي ترسلها القلوب للعقول، ألا يعني هذا الأمر أن الإنسان كذلك لا يمكن أن يستغني عن عقله حين يُحدد مواقفه في الحياة، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يصم أذنيه عن نبضات قلبه!!

سيظل الجسد البشري معجزة الله على الأرض إلى أن يرثها ومن عليها، ومن هنا إلى أن تحين الساعة، لنوازن بين قلوبنا وعقولنا، ونجعلهما سوياً البوصلة التي توجهنا حين نقف أمام اختياراتنا في الحياة، وألا نسعى لرمي آدميتنا من علو شاهق دون رحمة، أو نكون مثل تماثيل الشمع المعروضة التي لا روح فيها، فجميل أحياناً أن نتعامل بفطريتنا دون أن نوصل شراييننا بأجهزة الريموت كونترول التي اجتاحت دروبنا.

فكما رأيت أيها القارئ الكريم الصراع الدائم بين العقل والقلب، وكلٌّ فيهم يحكم مما يبدو له من حقائق الأشياء وكنهها وماهيتها، وأن ذلك الخلاف دائم لا ينتهي حتى ينتهي الإنسان معه ويفنى.

وخلاصة القول إذا أراد الإنسان أن يعيش حياة ساكنة خالية من الاضطرابات والنزعات الداخلية والخارجية فعليه أن يتزن في العقل

والقلب، لكي لا يطغى أحدهما على الآخر، فطغيان القلب يؤدي إلى المشاعر المجنونة المفرطة وطغيان العقل يؤدي إلى الجفاء والقسوة والشدة في الطبع والمعاملة، فقد أمرنا الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم بذلك الاتزان فقال: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" سورة الحج (46)

****

الفصل الخامس صراع العقل مع العاطفة

كما تعودنا أننا نتحدث عن شيء غير محسوس وغير مرئي ولكننا نرى نتائجه في الحياة فالعاطفة أيضاً من الأشياء التي لا نعرف ماهيتها فلا بد أن نتعرض لتعريفها حتى يسهل علينا التعرض إليها.

تعريف العاطفة

العاطفة هي عبارة عن مجموعة من المشاعر والأحاسيس الجسدية إضافة إلى الوعي والإدراك والتي تعكس ردة فعل الشخص تجاه المواقف والأمور الحياتيّة التي يواجهها في يومه، وهي في الحقيقة تشمل مجموعة لامتناهية من الظواهر النفسية سواء كانت محدّدة تجاه حدث معيّن يرافقها بعض الانفعالات المرئية والواضحة للآخرين، أو تدفّق مفاجئ من المشاعر غير المرئية للآخرين.

تتحكم العواطف بمجريات حياتنا فنحن نشعر بها كل لحظة، تؤثر على علاقاتنا بالآخرين (خجل، تعاطف، حب، كره...) وتؤثر على اختياراتنا وقراراتنا، كما يمكن التلاعب بعواطفنا بشكل كبير جداً حتى دون أن نشعر عن طريق الإعلانات ووسائل الإعلام والخطابات وغيرها... نحاول

أحياناً إخفاء بعض منها لدواعٍ اجتماعية وثقافية كإخفاء الحزن أو الغضب، أو القلق ونحوه... كما نحاول السيطرة عليها قدر الإمكان.

ما هي العواطف في علم النفس؟

هي تجارب ذاتية تنطوي على الإثارة الفيسيولوجية والتقييم المعرفي، فلو كنت تسير على سبيل المثال فاعترض سبيلك شخص مسلح (مثير) سيتملكك الرعب لأنك تدرك أنه يود قتلك (تقييم معرفي).

نشترك والحيوانات في العديد من العواطف لذا فهي غرائز من شأنها دفعنا للبقاء على قيد الحياة.

عمد عدد كبير من العلماء على مر الزمن على تحديد هذه العواطف، واستخراج العواطف الرئيسة، من العلماء من حدد أربعة عواطف وهناك من حددَ ستاً أو ثماني...

لنكتفِ بست عواطف هنا:

- الخوف: عاطفة تستثار عن طريق التعرض للتهديد أو الخطر، وهي تدفع الكائن لتجنب مصدر الخطر أو الهروب منه.

- الغضب: عاطفة تستثار عن طريق مواجهة المعيقات أو الأعداء، وهي تدفع الكائن لتحطيم المعيق وتجاوزه.

- السرور: عاطفة تستثار بالحصول على شيء قيّم، وهي تدفع الكائن للسعي نحو المزيد منه أو المحافظة عليه.

- الحزن: عاطفة تستثار بسبب فقد شيء قيّم، وهي تدفع الكائن للسعي نحو الحصول عليه مجدداً أو تعويضه.

- التقزز: عاطفة تستثار عند مجابهة شيء خطر يجب الابتعاد عنه، كالطعام المتعفن أو الفضلات...

- المفاجأة: عاطفة تستثار بمجابهة شيء غير متوقع وهي تدفع الكائن للتوقف برهة لاستكشاف الوضع.

هذه العواطف الست نجدها لدى أغلب الحيوانات وهي تشكل بقية العواطف الأخرى، بمعنى أن الاحتقار مثلاً هو مزيج بين التقزز والغضب.

ـ عواطف الوعي الذاتي: هي مجموعة من العواطف تتشكل لدى الكائن البشري بعد تجاوزه سنته الثانية وهي عواطف مركبة من عدة عواطف رئيسة: الذنب، الإحراج، العار، الحسد، الفخر...

لا نجد هذه العواطف لدى الحيوانات وهي تتشكل لاحقاً لدى الإنسان بالتفاعل مع الآخر والإدراك والوعي للذات واختلافها عن الكيانات الأخرى.

تختلف استجابة جسدنا مع كل عاطفة على حدة فكل منطقة بالدماغ مسؤولة عن عاطفة أو مجموعة من العواطف للقيام بتهييئ الجسد للقيام برد الفعل المناسب.

عند الخوف يصير جسدك مهيأ للهرب، في حين بحالة الغضب ستشعر بحرارة وقوة جسدية أكبر ويصير جسدك مهيأ للمواجهة وتحطيم العائق،

فقد يدخل المرء في شجار مع شخص آخر سبب عاطفة الغضب، وقد يحطم غرضاً حدث به خلل كالهاتف، فكون العواطف عمياء فإنه بالنسبة للغضب الهاتف الذي رفض الاشتغال عائق وبالتالي قد يحطمه لأنه بالنسبة للدماغ قد دفعه لإنجاز مهمة التخلص من العائق (الهاتف).

رائع أليس كذلك!

هناك عدة نظريات حول العواطف تحاول الإجابة عن كيفية اشتغالها: نظريات فيسيولوجية، نظريات معرفية... سأذكر هنا أربعاً منها فقط:

-نظرية جيمس ولانج: يرى هذان العالمان أنه عند رؤية المثير تحدث استجابة فيسيولوجية ومن ثم يشعر بالعاطفة.

مثال: رأيت حيواناً مفترساً (مثير)، ستبدأ بالتصبب عرقاً والارتعاش (استجابة)، ثم تشعر بالخوف (عاطفة).

-نظرية كانون وبراد: لا يوافق هذان العالمان جيمس ولانج فقد يرتجف الإنسان برداً، ولكنه سيدرك أنه ليس خائفاً، حسب كانون وبراد فإن الاستجابة الفيسيولوجية والشعور بالعاطفة يأتيان دفعة واحدة.

مثال: رأيت حيواناً مفترساً (مثير) ستشعر بالخوف وستتصبب عرقاً وترتعش في ذات الوقت (استجابة وعاطفة).

-نظرية شاتر وسنجر: يوافق هذان العالمان جيمس ولانج إلا أنهما يضيفان عنصر التقييم المعرفي كضرورة للشعور بالعاطفة، فعند رؤية المثير يقيم الشخص الموقف ويأتي برد فعل.

مثال: رأيت حيواناً مفترساً (مثير) سترتفع دقات قلبك وترتعش (استجابة) تفكر في أنه حيوان قد يقتلك (تقييم معرفي) تشعر بالخوف (عاطفة).

-نظرية لازاروس: يرى هذا العالم أن تخميناً سريعاً يحدث لنا عند رؤية مثير، فنستجيب له عن طريق الاستجابة الفيسيولوجية والعاطفة في ذات الوقت.

مثال: رأيت حيواناً مفترساً (مثير) ستفكر في كونه حيواناً مفترساً خطيراً قد يقتلك (تخمين) فتشعر بالخوف وترتفع دقات قلبك وترتعش (عاطفة واستجابة)

العاطفة في القرآن والسنة النبوية

التَّوَازُنِ الحَمِيْدِ بَيْنَ العَاطِفَةِ وَالعَقْلِ الرَّشِيْد

لقد عني الإسلام بإيجاد الحياة المتوازنة للإنسان على صعيدي العقل والعاطفة، وهذا التوازن هو الذي يؤَّمن له الانطلاق في دروب الحياة بروح وثابة وعقل متفتح.

فإن العقل والعاطفة هما الضدان المتكاملان، وكمال الإنسان في أن يعرف كيف يوازن بينهما في الوقت والمكان المناسب، فلا يزيد من دور العاطفة وينقص دور العقل، ولا يزيد دور العقل على حساب العاطفة.

فالعقل يتسم بالصلابة والقوة والتحليل المنطقي، إذ يعتمد دائماً على أساس المنطق والاستدلال، ويحكم في مختلف القضايا وفق معايير وحسابات صحيحة، وتتسم العاطفة بالرقة والليونة والأحاسيس النبيلة، ويكون هدفها بلوغ النتيجة المرجوة سواء أتت مطابقة للمنطق والمصلحة، أم منافية لها.

وكلا العقل والعاطفة لا غنى للإنسان وبنائه الرّوحي عنهما، فصلابة العقل تلطفها رقة العاطفة، وطيش العاطفة يهذبها تدبير العقل، وهما عاملان مؤثران في إدارة شؤون الإنسان الحياتية، وقدرتان مهمتان في تأمين سعادته.

وعندما يبتعد العقل عن العاطفة يصاب بحالة من الاضطراب، وإذا استمر في الابتعاد فإنه يتصلّب ويُصاب بغلظة القلب، لذا حذر القرآن الكريم النَّبِـيّ صلى الله عليه وسلم من هذا الابتعاد عن العاطفة فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّه لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [آل عمران **159**]، أي: لو كنت قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكنَّ الله جمعهم عليك، وألانَ جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة: إنه ليس بفَظٍّ، ولا

غليظ، ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، والعفو والصفح يكون من جانب الإحسان المستقر في العاطفة.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يتعاملوا بشيء من الرفق والرحمة والعاطفة بجانب العدل وأحكام العقل، كلاهما لا ينفصلان حتى يتكامل الإنسان بشقيه العقلي والعاطفي، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [النحل **90**] فالعدل من أحكام العقل، والإحسان من فيض العاطفة.

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل **126**]، وقال {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى **40**]، وقال {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [المائدة **45**]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.

كما حذرهم من الانجذاب نحو العاطفة في غير محلها، فقال تعالى: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّه إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة **8**]، أي: لا تحملنكم عداوة قوم وبغضهم - وهذا من جهة العاطفة- على ألا تقولوا الحق وتحكموا بالعدل -وهذا من جهة العقل- بل اتركوا العاطفة جانباً واحكموا بحكم العقل الموافق للشرع لأن ذلك تقوى وقربى إلى الله.

ومن أسوأ الأحكام المرتكزة على العاطفة، والمنتشرة بين الناس اليوم أن يقوم أحدهم إلى صلاة الفجر كل يوم، ويأبى أن يوقظ لها أهله وبخاصة ابنه ذا الثلاثة عشر ربيعاً خوفاً عليه من البرد، أو أنه لم يأخذ قسطاً من النوم والراحة، ونسي أن يُحَكِّم عقله، وأن يوقظه لطاعة رب العالمين واهب الصحة والراحة والنِّعم.

فالواجب على المسلمين أن يراعوا التوازن بين العدل والإحسان؛ بين العقل والعاطفة إلا بينهم وبين خالقهم فلا بد أن يطلبوا منه ويرجونه أن يعاملهم بالإحسان لا بالعدل إذ الفضل منه وإليه، فالعدل هو الميزان وهو مقتضى الحكمة، والإحسان هو الرأفة والمغفرة وهو مقتضى رحمته تبارك وتعالى، وقد قال في الحديث القدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

وكان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع الناس بالعقل والعاطفة أي؛ بالعدل والإحسان حسب ما تقتضيه الحاجة وتفرضه المواقف، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى حَمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَرَآهُ قَدْ مُثِّلَ بِهِ فَقَالَ: «لَوْلا أَنْ تَجِدَ صَفِيَّةُ فِي نَفْسِهَا لَتَرَكْتُهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الْعَافِيَةُ حَتَّى يُحْشَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بُطُونِهَا»، وهذا خيرٌ لحمزة، ولكنَّ النَّبِـيّ صلى الله عليه وسلم عزف عن هذا الصنيع الذي لا تفهمه صفية وقد تحزن وتجد في نفسها لو فعله صلى الله عليه وسلم وهو الرحمة المهداة ظاهراً وباطناً صلى الله عليه وسلم، فكان حكم العاطفة في هذا الموقف هو الأولى منه صلى الله عليه وسلم.

وفي طريق رجوعه صلى الله عليه وسلم من غزوة حمراء الأسد إلى المدينة أخذ أبا عَزَّة الجمحي وهو الذي كان قد منَّ عليه من أسرى بدر؛ لفقره وكثرة بناته، على ألا يظاهر عليه أحداً، ولكنه نكث وغدر فحرض الناس بشعره على النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وخرج لمقاتلتهم في أحد فلما أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد، أقلني، وامنن على، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَمْسَحْ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ بَعْدَهَا وَتَقُولُ: خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ، لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

ففي هذا الموقف كان إعمال العقل هو المتوجب عليه صلى الله عليه وسلم سيما وقد أبان القاعدة التي يدور عليها وهي أنه لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين، فتقرير العقل ها هنا كان أقوى من نداء العاطفة المرتكز على فقر الرجل وكثرة بناته، فعامله صلى الله عليه وسلم بالعدل لا بالإحسان إذ أحسن إليه من قبل.

وروى الطبراني عن وحشي: قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا وحشي، قلت: نعم، قال: قتلت حمزة؟ فقلت: نعم، والحمد لله الذي أكرمه بيدي ولم يهني بيده، فقالت له قريش: أتحبه وهو قاتل حمزة؟! فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فتفل في الأرض ثلاثة، ودفع في صدري ثلاثة، وقال: يا وحشي، اخرج فقاتل في سبيل الله كما قاتلت لتصد عن سبيل

الله. وفي الروض الأنف قال وحشي: فلما فرغت من حديثي قال: ويحك غيب عني وجهك، فلا أرينك. قال: فكنت أتنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لْئلا يراني حتى قبضه الله.

فحب النَّبِـيّ صلى الله عليه وسلم لعمه حمزة منعه من أن يرى قاتله أمام عينيه، فعاطفته صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف كانت حاضرة بقوة وشاهدة على تأثره صلى الله عليه وسلم بحكمها، وعدم انصياعه لصوت العقل الذي يقول: إن الرجل قد أسلم وحسن إسلامه، وهذا منه صلى الله عليه وسلم غاية رفيعة في الأحاسيس البشرية.

وكما أن العقل والعاطفة ضدان ولا تكون حياة الإنسان إلا بهما وقد ظهرت هذه الأضداد في كل شيء؛ في الحر والبرد، وفي الغنى والفقر، وفي الصحة والمرض، وفي الدنيا والآخرة، فإنهما يظهران في حياة الإنسان ونفسه، ولهذا وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح **29**]، وقوله: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة **54**] وهذه من صفات الأضداد؛ أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، والأولى من العقل والثانية من العاطفة.

وهذا في جنب المُناوئين للمسلمين، أما في جنب من لم يحارب الإسلام وأهله فقال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة 8]، فجعل البر قبل القسط أي؛ الرحمة والعفو قبل العدل، وهذا هو التوازن المنضبط في شريعة رب العالمين وخير المرسلين.

ومن أجل العاطفة خلق الله حواء لآدم لترطب بعاطفتها صلابته، وكان الزواج سنة من سنن الأنبياء، وكانت الرهبانية مبتدعة في دين النصارى لذا؛ حذر صلى الله عليه وسلم من هذه الرهبانية، لأنها تخالف سنن الكون، فكلٌّ من الرجل والمرأة يمتلك عقلاً وعاطفة، والعقل لدى الرجل يكون في أقصى درجات قوته وكماله، والعاطفة لدى المرأة تكون في أقصى درجات قوتها وكمالها، فإذا اجتمعا اكتملا.

والرجل إذا ما انفرد وابتعد عن المرأة يبقى عقله متعطشاً للعاطفة، وكذا المرأة إذا ابتعدت عن الرجل تبقى عاطفتها متعطشة لنور العقل، ومن ثمَّ تكثر حالات الاضطراب الذي يرافق العزوبة.

ولولا العاطفة والحب ما رضي أحد من الناس أن يقيم بيتاً فيه زوجة وأولاد يحنو عليهم ويتحمل أذاهم، ويعول أباه وأمه العاجزين، كما أن إهمال العاطفة في الأفكار والمعتقدات والأنظمة يؤدي إلى هلاكها وسقوطها. فها هي الأنظمة الاشتراكية والرأسمالية تهمل العاطفة وتحكم العقل فقط

وهو ما يخالف سنن الفطرة، فهذه الأنظمة تنص على أن من يعمل يأخذ مقابلاً ومن لا يعمل لا يأخذ شيئاً، فأصبحوا كالحيوانات في الغابة يأكل القوي الضعيف، فلا يتحركون إلا بالفكر المادي القاتل للعاطفة، بينما الإسلام بعقله وعاطفته يقول من يعمل يأخذ بقدر عمله، ومن لا يعمل يمكن أن يأخذ وذلك إذا كان فقيراً أو ضعيفاً، وهو ما تفتقده هذه الأنظمة الجاحدة القاسية التي تقف على ساقٍ واحدةٍ وهي ساق العقل. فهوت الأولى إلى مزبلة التاريخ وسوف تهوي الثانية إن شاء الله سنة الله التي لا تبديل لها.

لذا؛ حرص ديننا أن يجعل هذه العاطفة من الدين، فقال تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [البقرة **83**]، وقال صلى الله عليه وسلم أمك ثم أمك ثم أمك (أي؛ برها) ثم أبوك.

قال الإمام أحمد: الطاعة للأب والبر للأم، والطاعة من قبيل العقل والبر من جهة العاطفة، فإذا عُرض على المرء رأي كُلٍ من الأب والأم في أمر من أمور الحياة فإن الرأي الأرجح يكون غالباً مع الأب لأنه يحكم من قَبِيل عقله وخبرته بالحياة ومشاكلها.

والتفضيل بين اختيارات العقل والعاطفة قد يكون صعباً في بعض الأحيان، وتزداد الحيرة إذا كانت المواقف تستدعي قراراً في التو واللحظة، وقد حدث هذا لبعض الصحابة؛ فعَنْ جَابِرٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله

عليه وسلم وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ نَجِدْ لَهُ غَيْرَهُ فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً كُنَّا نَمُصُّهَا كَمَا يَمُصُّ الصَّبِيُّ ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنْ الْمَاءِ فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَرُفِعَ لَنَا كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ الضَّخْمِ فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هُوَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَيْتَةٌ وَلَا تَحِلُّ لَنَا ثُمَّ قَالَ لَا بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ فَكُلُوا فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا وَنَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ حَتَّى سَمِنَّا فَلَمَّا قَدِمْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا مِنْهُ فَأَرْسَلْنَا مِنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَكَلَ»

فأبو عبيدة قال بادياً الرأي بعاطفته عن الحوت: إنه ميتة فلا تأكلوا منه، ولما تمهل وأعمل عقله وصل إلى رأي منطقي وهو: أنهم رُسل رسول الله وفي سبيل الله وأنهم مضطرون، ولا بد أنه رزق ساقه الله إليهم.

في هذا الموقف الذي لا يحسدون عليه كان حُكم العقل هو الذي لا بد من ترجيحه لأنه هو المنقذ وهو الموافق لأحكام الشرع.

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا

فَجَمَعُوا فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا فَأَوْقَدُوهَا فَقَالَ ادْخُلُوهَا فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنْ النَّارِ فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ فَسَكَنَ غَضَبُهُ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ.

فحُكم العاطفة المجردة يقول إنه يجب عليهم أن يطيعوا أميرهم أياً كان نوع هذه الأوامر، ولكنَّ صريح العقل يقول: إنما الطاعة في المعروف ليس في الباطل!

وفي موقف عصيب لعَبْد اللهِ بْن عَبْد اللهِ بْن أبي بْن سلول جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت تريد ذلك، فمرني بقتله، فوالله إن أمرتني بقتله لأقتلنه، وإني أخشى يا رسول الله إن قتله غيري ألّا أصبر عن طلب الثأر فأقتلَ مسلماً فأدخلَ النار، وقد علمتْ الأنصار أني من أبر أبنائها بأبيه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له، وقال له: حبر أباك، ولا يرى منك إلا خيراً.

ففي هذا الموقف استطاع عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول أن يُحَّكم عقله ويسيطر على عاطفته التي ما تفتأ تأمره بقتل مسلم بكافر؛ ثأراً لأبيه الذي عده الإسلام رأس النفاق، فجاء إلى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ليقوم

بواجب الإسلام بيده لا بيد أحد سواه، وهذا شديد على النفس ولكنه العدل في أبهى صوره بعيداً عن العاطفة التي ليس لها مكان بين الكفر والإيمان.
فالإسلام يعلمنا أن نكون متوازنين في أفكارنا ومشاعرنا وحركاتنا وسكناتنا، وسيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه فيها العبر والعظات لطالب الهداية ومنشد الرشاد!

صراع بين العقل والعاطفة

تقود القرارات أنشطتنا اليومية؛ ولا تنتهي الحاجة إلى اتخاذ قرار أبداً، حيث يمكنك اتخاذ القرارات حتى عندما تفكر في عدم اتخاذ القرار، ونحن لا نختار الخيار الأكثر عقلانية دائماً، فالجميع يحلل المعلومات بشكل عقلاني وعاطفي في الدماغ.. هل ذلك مألوف بالنسبة لك؟ ولماذا لا تفعل أشياء تعرف أنك يجب أن تفعلها؟ دعنا نتحدث عن التفكير والإحساس.. كذلك القرارات وحل المشكلات؛ بناء على طريقة تفكيرنا ونوع مشاعرنا وعاطفتنا.

صراع القوة بين العاطفة والعقل!

هل هما نظامان منفصلان للتفكير؟ العملية العاطفية.. البديهية، من ثم العملية المنطقية البطيئة والأكثر فعالية للتفكير العقلاني؛ هل يتنافس

هذان القسمان من الدماغ!؟[9]وفقاً لهذه الرؤية.. قد تتطلب بعض المواقف نشاطاً أكبر في الجزء العقلاني من دماغك، بينما يعتمد آخرون على القسم العاطفي لاتخاذ القرار، فسواء يعمل الجزء العاطفي بشكل اعتيادي أم لا، فإنه يؤثر على عملية اتخاذ القرارات بشكل يومي، والحقيقة لا يمكنك أن تكون عقلاني إذا كنت عاطفياً جداً، لكن في الوقت نفسه لا يمكنك أن تكون عقلانياً إذا لم تكن عاطفياً!

عندما تكون عاطفياً جداً، فلن تتخذ خيارات منطقية، على الرغم من أنك تعرف ما هو الأفضل لك! فكم من مرة اتخذت قرارات تناقض طريقة حكمك على الأمور؟! بمعنى عندما تكون عاطفياً جداً، لن يفوز الجزء العقلاني من دماغك، على الرغم من أنك تعرف ما الذي سيجعل الأمور أفضل (التوقف عن تدخين السجائر- قطع تناول الكحول.. إلخ)، لأن التعامل مع خيارات الحياة، وتلك التي تدفع التغيير في حياتك؛ هي على ما يبدو أمراً صعباً من دون توفر المعلومات الصحيحة التي تساعد منطقك، وبغير ذلك ستكون قراراتك عاطفية.

القرارات.. حتى الحاسمة منها، ليست مجرد ابتعاد وتجرّد عن العواطف، فإذا كان علينا استخدام المنطق والعقل في جميع الحالات، وإذا كان علينا أن

[9] - كتاب دانييل كانيمان (Daniel Kahneman)، "التفكير السريع والبطيء"

نبرر كل قرار؛ سنكون محاصرين في حلقة.. وغير قادرين على التحرك في أي اتجاه، لأننا نحلل ونفكر في إيجابيات وسلبيات كل خيار، حيث:

-يمثل الجزء العقلاني؛ قدرتك على التفكير من خلال خيارات مختلفة، بينما العاطفي يمثل؛ غرائزك ودوافعك وحدسك.

-التفكير العقلاني منهجي ونزيه، لكنه بطيء أيضاً، مثل العضلات لا بد من تدريبه وبنائه مع مرور الوقت بالممارسة، مع ذلك فإن الجزء العاطفي يتخذ القرارات بسرعة وبدون عناء رغم أنه غير منطقي!

في حين أن الكثير من المشاعر يمكن أن يُضعف التفكير، فإن قلة العاطفة يمكن أن تكون ضارّة للجانب العقلاني.. بنفس الدرجة!

عواطف المنطق!

للقلب أسباب لا يفهمها المنطق.

يمكن أن نتحدث عن تدريب العواطف بالمنطق وسنوات الخبرة، ونحتفظ بها لحكمة حقيقية في حياتنا، فالحدس والمشاعر التي تعتمل في الأمعاء مثلاً؛ جزء لا يتجزأ من عملية التفكير والقدرة على التحليل العقلاني، حيث يمكن أن تطغى العواطف والعقلانية معاً، والعقلانية لا يمكن أن تبقى من دون العواطف، وخاصة عند ضعف العاطفة، بالتالي فإن عملية صنع القرار تعاني، ولكي تتخذ القرار الصحيح لا بد أن تعيش إحساسك أو

على الأقل جزءاً منه[10]، كما يقود عقلك العاطفي جزءاً كبيراً من خياراتك.. لا تنسَ ذلك! ويمكن أن نختصر هذه العلاقة بين المنطق والعاطفة فيما يلي:

-تمثل العقلانية نسبة **20**٪ من عملية صنع القرار البشري، بينما تقود العواطف نسبة **80**٪! لكن العواطف أيضاً تربح كامل عملية اتخاذ القرار أي **100**٪؛ عندما تكون جائعاً أو غاضباً أو وحيداً، ثم من الأرجح أن تدفعك العواطف في الاتجاه الخاطئ[11].

-في بعض الأحيان تكون العواطف هي القوة الأكثر إلحاحاً في حياتنا، إذ أن لدينا ميل قوي للسماح بسيطرة المشاعر على تفكيرنا المنطقي، الذي يكون عاجزاً من دون عواطف كما أسلفنا، كما أننا ننتهز الفرص بسرعة (عاطفيون) لأننا متحمسون لآفاق جديدة، كما أن العواطف تملي الأفكار والأفعال بسلطة على عقولنا، لكن عندما تكون هذه العواطف عبارة عن إحساس خاطئ؛ فإننا نتخذ قرارات يُرثى لها[12].

-تهيمن العاطفة على التفكير عندما يكون للأقارب والأهل علاقة مباشرة في أي قرار نعمل على اتخاذه، ونظراً لأن العقل يحتاج الكثير من المعالجات أثناء التفكير.. يزداد الاحتمال العاطفي في الطغيان على اتخاذ القرار.

---

[10] مقال دريك باير (Drake Baer) "المنطق يدمر حياة الإنسان"

[11] مقال مايكل ليفين (Michael Levine)؛ "المنطق والعاطفة"

[12] مقال الدكتورة كارمن هارا (Carmen Harra)؛ "خطوات السيطرة على عواطفنا"

-يعمل الجزء العاطفي على الحد من المنطقي وتقييده؛ فيتيح فرصة من التفكير المتكامل! لأن بعض الناس ينجحون في تحقيق التوازن بين الاثنين، وبعضهم الآخر يكون منطقياً، لكنه يعتمد على قيمه وشخصيته وقناعاته... إلخ.

-تضعف قدرتك على اتخاذ القرار عندما تتوفر لديك الكثير من المعلومات حول موقف ما! وأهم تلك القرارات التي تتخذها هي ما يطغى فيها الإحساس عليك، فيبدو القرار مستحوذاً على تفكيرك بالكامل! هل يبدو هذا الكلام متناقضاً؟ إليك إذاً ما أظهرته الدراسات[13]؛ عندما يتم تحميل أذهاننا بالمعلومات، يفوز الجانب العاطفي من دماغنا.. حيث نواجه عادة الكثير مما يجب مراعاته، فيطغى على الجزء العقلاني من دماغنا، بالتالي مع وجود الكثير من الضغط على الجزء العقلاني من دماغنا؛ سيخسر المعركة ضد الجزء العاطفي.

-العواطف تلهم الفعل.. فالغضب يدفع جسمك للتحرك، والقلق يسحبه إلى التراجع، كذلك الفرح يضيء الوجه، بينما يحاول الحزن العمل على إخفاء وجودك عن الأنظار!

على الرغم من أن المشاعر تحمل الحكمة والحماقة في نفس الوقت وتؤثر على الجسم ككل؛ فإنها تدفع وعينا أكثر مما نتخيل، وتكمن أهميتها في القدرة على عيش اللحظة (الآن).. حيث تتجسد فكرة وجودك وقدرتك على

[13] مقال جاكلين كلير سيرالدو (Jacqueline Claire Ciraldo) "الدماغ العقلاني والدماغ العاطفي"

التحكم بنفسك وحياتك، وعلى الرغم من أن الجزء العقلاني في الدماغ يساعدك على اتخاذ قرارات محسوبة، إلا أنه يعني الغرق في الماضي (بناءً على الخبرات والتجارب السابقة) والشطح إلى المستقبل (الأمل بالأفضل).

بعض صور الصراع بين العقل والعاطفة

ربما يكون للإنسان كثير من العلاقات التي حوله والتي توثر فيه تأثيراً سلبياً ومن الغريب أنه يظل محتفظاً بتلك العلاقات مع العلم أنها تشكل له ضرراً نفسياً جسيماً، والسبب هو إرادة العواطف، إنها تريد تلك العلاقات وكم تستنزف تلك العلاقات من طاقات الإنسان وتدمره نفسياً، ولا بد من تدخل العقل في تلك المواقف لكي ينقذ الإنسان من الهلاك المعلن.

مسارات التنقل الرئيسة

الرجل والمرأة علامات توضح لك علاقاتك السامة وكيف تتخلص منها

الرجل والمرأة الرجل- القاهرة **25** أبريل **2022**

يحتاج كل رجل إلى الارتباط بامرأة تشاركه اهتماماته وتفاصيل يومه، لكن هناك من لا يوفقون في ذلك، ما يجعلهم يعيشون في علاقة سامة، تؤثر بالسلب على شتى نواحي الحياة. في مقالنا هذا نتناول علامات العلاقات السامة، وكيفية التخلص منها قبل أن تنزلق قدماك وتقع فريسة سهلة.

ما هي العلاقات السامة؟

العلاقات السامة؛ مصطلح يُشير إلى العلاقات الاجتماعية الضارة التي يقوم فيها طرف باستغلال طرف آخر أو الضغط عليه واستنزاف طاقته بالكامل من دون مقابل، ويمكن أن تكون العلاقات السامة؛ إما علاقات عاطفية أو علاقات صداقة أو علاقات عمل.

والعلاقات السامة أيضاً؛ هي العلاقة التي تجعلكَ تشعر بأنكَ غير مدعوم ويساء فهمكَ، ومن ثم تتعرض إلى الهجوم والنقد ما يسبب فقدانكَ للثقة بذاتكَ وبقدراتكَ.

كما تؤثر العلاقات السامة على الطرف الأضعف دائماً السلبي الذي لا يأخذ رد فعل، وتساهم هذه العلاقات الضارة في دخول الشخص في حالة من الاكتئاب الشديد نتيجة استنزاف طاقته والضغط عليه.

بالإضافة إلى ذلك تُعرف العلاقات السامة؛ بأنها العلاقة التي تظهر بها المواقف السلبية أكثر من المواقف الإيجابية، ويمكن أن تكون بين أفراد عائلتكَ.

أنواع العلاقات السامة

١) علاقة السيطرة:

علاقة السيطرة من أبرز أنواع العلاقات السامة، وهي التي يتبع أحد طرفي العلاقة أسلوب السيطرة والتحكم مع الطرف الآخر، حيث يفرض عليه تنفيذ الأوامر.

كما يلغي حقه في الاعتراض أو التعبير عن رأيه بل يتعامل مع الطرف الآخر بأنه تابع له، ولا يسمح له بالقيام بأي شيء من دون موافقته.

وتؤثر علاقة السيطرة على الطرف الأضعف، الذي لا يمتلك القدرة على الابتعاد عن الشخص المسيطر لخوفه من الوحدة والعزلة.

٢) علاقة الغيرة الشديدة:

إذا كنتَ في علاقة تشعر فيها أن الطرف الآخر يغار بشكل مفرط به لمجرد قضائكَ الوقت مع أصدقائكَ أو عائلتكَ، فأنتَ بلا شك في علاقة سامة.

الغيرة شعور طبيعي في العلاقات ولكن إذا كانت بشكل قليل ومعتدل، فيما غير ذلك فهي غيرة مرضية ومفرطة تؤثر على حياة الطرف الآخر وتسبب له الضيق والانزعاج، كما تعدُّ قلة ثقة من الطرف الغيور بنفسه.

٣) علاقة العنف:

علاقة العنف من أبرز أنواع العلاقات السامة، وذلك إذا قام طرف بتعنيف الطرف الآخر معنوياً أو جسدياً.

لهذا إذا كنتَ في علاقة يتصرف فيها الشريك بالعنف من خلال توجيه الإساءات لكَ والانتقادات اللاذعة والإهانات والسخرية منكَ والتقليل من شأنكَ أو يعتدي عليكَ جسدياً باستمرار، فأنتَ ضحية العلاقة العاطفية السامة.

٤)علاقة الشك:

يقوم الطرف الآخر في هذه العلاقة بالشك بكَ باستمرار كأنه يحقق معكَ في أدق تفاصيل يومكَ ما يسبب لكَ الانزعاج والضيق وتشعر كأن حياتكَ أصبحت جحيماً.

وقد ينتج شعور الشك لدى الطرف الآخر نتيجة تعرضه لتجارب سابقة فاشلة، أدت إلى فقدانه الثقة بنفسه وبالآخرين.

٥)علاقة الشكوى والتذمر:

يقوم الطرف الآخر في علاقة الشكوى والتذمر برفع شكواه بشكل مستمر للطرف الآخر وذكر المواقف السلبية والنظرة السوداوية للعالم ما يجعلكَ محبطًا وغير سعيد.

وهذه العلاقة سوف تشعركَ بالتعاسة الدائمة لأن الطرف الآخر يتعمد عدم إظهار المواقف الإيجابية ولا يلجأ إليكَ غير للشكوى والتذمر.

٦)علاقة الكذب:

بالتأكيد لا تحب أن تكون في علاقة مليئة بالأكاذيب، لهذا تعدّ علاقة الكذب من أهم أنواع العلاقات السامة، ويتفنن الطرف الآخر في استعمال كافة أساليب الكذب، حيث أنه يكذب باستمرار وطوال الوقت ولكنكَ لا تستطيع إثبات ذلك.

ويؤدي كثرة كذب الطرف الآخر عليكَ، بشعوركَ بالإحباط وعدم الأمان وقلة الثقة به باستمرار ورغبتكَ في إنهاء علاقتكَ معه لأنكَ لا تصدق أحاديثه.

٧)علاقة التطلب:

يكون الطرف الآخر في علاقة التطلب، دائم الطلب منكَ إما يطلب مشاعر أو اهتماماً أو أي شكل من أشكال التطلب، بالإضافة إلى ذلك يكون شخصاً من الصعب إرضاؤه.

ويؤدي كثرة تطلب الطرف الآخر إلى شعوركَ بالعجز والاكتئاب لأنكَ مهما فعلت ما بوسعكَ لن تكون جيداً في نظره.

٨)علاقة اللوم:

يقوم الطرف الآخر في علاقة اللوم، بتوجيه اللوم لكَ على أخطائه وعلى التصرفات السلبية التي تحدث له، ما يُشعركَ بالضغط والذنب غير المبرر.

لهذا إذا كنتَ في علاقة مع أحد الأشخاص الذين يوجهون لكَ اللوم باستمرار، عليكَ مواجهته وإيقافه عن لومكَ وإحباطكَ.

٩)العلاقة النرجسية:

وقوعكَ في علاقة مع شخص نرجسي من العلاقات السامة بلا شك، لأن الشخص النرجسي لا يقدر إلا نفسه وأفعاله فقط بغض النظر عمّا تشعر به أو تريده.

لهذا يتعامل الشخص النرجسي معكَ على أنكَ مكمل له، وليس شريكاً أو صديقَ حياته مما يجعله يتحكم في كل الأمور التي تقوم بها حتى لا تضر بمظهره أمام الآخرين.

ويؤدي استمراركَ في العلاقة النرجسية إلى فقدانكَ الثقة والتقدير لذاتكَ، وتحولكَ لشخص بلا مشاعر تسعى لإرضائه فقط.

فجميع هذه العلاقات السامة يجب على الإنسان أن يتصدى لعواطفه، وأن يوقف جميع هذه العلاقات لكي يستطيع أن يكمل حياته بسعادة كاملة، ومن العجيب جداً أنك تجد شاباً يعجب بفتاة، وربما يدفعون إلى بعض عدداً من المشاعر، وبعد ذلك يحدث انفصال بينهم فيكتئب بعضهم وينتحر البعض الآخر معلل ما يفعله من مصائب بعلة الانهيار العاطفي، والسبب الوحيد من وراء ذلك هي العواطف الجياشة المفرطة التي يصدرها الإنسان في غياب كامل للعقل.

كيف نسيطر على عواطفنا؟

ونحن هنا لا نتحدث للسيطرة على العواطف بشكل كامل وتعطيل ماهيتها، ولكننا نريد السيطرة على العواطف المفرطة التي تؤدي بي الإنسان إلى الانهيار والضياع، وأنا لا أتحدث عن منعها مطلقاً، بل أتحدث عن كيفية السيطرة عليها بطريقة الذكاء العاطفي.

إن مبدأ الذكاء العاطفي بسيط جداً يعتمد على إعمال الذكاء في العاطفة ولكي نتعامل بشكل صحيح مع أي موضوع يجب أن نفهمه فهماً صحيحاً فلا يمكن أن نحسن التعامل مع عواطفنا إذا لم نفهم هذه العواطف. لقد خلق الله العواطف في نفوسنا من أجل وظيفة معينة وهي حمايتنا من الأخطار والحفاظ على وجودنا والارتقاء بهذا الوجود فعاطفة القلق مثلاً وظيفتها أن تدفع بنا إذا وقعنا في مشكاة لكي نبحث عن حل لها أما عاطفة الخوف فوظيفتها أن تبعدنا عن الأخطار أما عاطفة الحب فهي تدفع بنا إلى التضحية في سبيل من نحب وكذلك عاطفة الغضب مهمتها أن تدفع بنا إلى الدفاع عن حقوقنا عندما يُعتدى علينا وهكذا...

هذه العواطف تلعب دورها الإيجابي عندما تأتي في الوقت المناسب وبالشدة المناسبة أما إذا أتت بشكل أقل أو أكثر من المطلوب فعندها ستلعب دوراً سلبياً في حياتنا. فمثلاً إذا أصيب الإنسان بقلق لأتفه الأسباب فإن هذا القلق سينغض حياته ويحد من سعادته وقدرته على تجاوز المشكلات وأما

إذا كان عكس ذلك لا يتعلق أبداً فهنا سيتحول إلى إنسان غير مبالٍ وستسبب له هذه اللا مبالاة الكثير من المشاكل، وكذلك كمثل عاطفة الخوف، فالخوف الزائد يمنع الإنسان من الإقدام على أي جديد أما انعدام الخوف يجعل الإنسان متهوراً ملقياً بنفسه في المهالك.

هناك قاعدة أساسية أستحضرها تتكلم عن الذكاء العاطفي تقول: نحن لا نستطيع أن نقرر عواطفنا لكننا نستطيع أن نقرر ماذا نفعل حيالها فأنا لا أستطيع أن أقرر متى أغضب ومتى أخاف، لكنني أستطيع أن أقرر كيف أتعامل مع خوفي.

والإنسان الذكي عاطفياً هو إنسان لا يتجاهل عواطفه ولا يكبتها وإنما يفهمها ويتعامل معها بطريقة إيجابية خلاقة إن تجاهل العواطف يشبه إغلاق جرس إنذار الحريق عندما يشب حريق في المنزل بدلاً من الاتجاه إلى إطفاء الحريق أما كبت العواطف فيؤذي إلى مزيد من التوتر والاحتقان وينعكس سلباً على صحتنا النفسية والجسدية، والإنسان الذي يكبت انفعالاته بدل أن يفهمها ويتحكم بها يشبه ذلك الذي يغلق منفد البخار في وعاء يغلي فيه الماء.

هناك قاعدة أساسية أستحضرها تتكلم عن الذكاء العاطفي تقول: نحن لا نستطيع أن نقرر عواطفنا لكننا نستطيع أن نقرر ماذا نفعل حيالها فأنا لا أستطيع أن أقرر متى أغضب ومتى أخاف ومتى أقلق ومتى أحب ومتى أكره لكنني أستطيع أن أقرر كيف أتعامل مع خوفي وقلقي وغضبي وحبي وكرهي

ومما لا شك فيه أننا مختلون في تركيبتنا العاطفية فهناك منا الحساس والهادئ والعصبي وهذا الذي يجعل من مهمة الذكاء العاطفي مساعدة الإنسان على فهم تركيبته العاطفية وترويضها والتعايش معها بحيث يحقق أكبر قدر ممكن من السعادة لنفسه ولمن حوله.

سأضرب مثالاً واقعياً وجدته في أحد الكتب التي تتكلم عن نظرة جديدة في العلاقة بين الذكاء والعاطفة بحيث عملت على إسقاطها في حياتي اليومية بشكل كبير على فهمي لتركيبتي العاطفية والعمل على ترويضها للتعايش معها في المقابل بدأت أحقق أكبر قدر مستطاع من السعادة لنفسي ولمن حولي وهذا المثال واقعي على شخص فهم عواطفه وتعامل معها بطريقة إيجابية خلاقة.

خرج محمود من منزله إلى عمله وقرر أن يمر في طريقه بدائرة حكومية لإجراء معاملة رسمية، قابله الموظف بجفاء شديد وعامله بطريقة أغضبته جداً عندما خرج محمود من الدائرة الحكومية فكر في أنّ اجتماعاً مهماً ينتظره في العمل وأنه إذا أدار هذا الاجتماع وهو في هذه الحالة من الغضب فلن يستطيع التركيز وسيكون اجتماعاً فاشلاً، وكان باستطاعته تأجيل هذا الاجتماع لمدة نصف ساعة، اتصل محمود بالعمل وأخبرهم أنه سيتأخر نصف ساعة، ثم قرر أن يترك سيارته أمام الدائرة الحكومية وأن يذهب ماشياً إلى مكان العمل فقد كان الجو ربيعياً جميلاً وكان مكان العمل يبعد عن الدائرة الحكومية حوالي نصف ساعة مشياً على الأقدام، وصل محمود

إلى مكان عمله، وقد هدأت نفسه وأدار اجتماعاً ناجحاً كعادته فبنظركم ما الذي فعله محمود؟

أول خطوة نحو التحكم بالعواطف هي تسمية هذه العواطف فنحن لا نستطيع التعامل بذكاء مع الموضوع ما إذا لم تكن لدينا الكلمات المناسبة لوصفه والذين يجهلون قراءة عواطفهم يعيشون تحت رحمتها.

لقد استوعب وطبق قاعدتين أساسيتين من قواعد الذكاء العاطفي وهما كالتالي:

أولاً: أدرك عاطفته أي أنه يعرف ماذا يشعر ولماذا يشعر وما علاقة ما يشعر به بطريقة تفكيره وأفعاله، أي لقد قرأ محمود الحالة الشعورية التي كان فيها وهي حالة الغضب وأدرك أن هذه الحالة ستؤثر على إدارته للاجتماع.

والقاعدة الثانية: فهي التعامل مع عاطفته بطريقة إيجابية خلاقة لقد أدرك أن نصف ساعة من المشي في هذا الجو الربيعي كفيلة بإنهاء هذه الحالة وعرف ذلك من خبرته مع نفسه وعواطفه فربما تكون نصف ساعة هذه غير كافية لشخص آخر لذلك قرر تأجيل الاجتماع وترك السيارة أمام الدائرة الحكومية والسير مشياً على الأقدام، فلو لم يكن ذكياً عاطفياً لشغل سيارته بعصبية وانطلق مسرعاً إلى الاجتماع ولأداره بعصبية ونزق ولفشل الاجتماع دون أن يعرف سبب فشله.

إن أول خطوة نحو التحكم بالعواطف هي تسمية هذه العواطف فنحن لا نستطيع التعامل بذكاء مع الموضوع ما إذا لم تكن لدينا الكلمات المناسبة

لوصفه والذين يجهلون قراءة عواطفهم يعيشون تحت رحمتها وقد بينت عدة دراسات أن بعض الناس ممن يتمتعون بذكاء عقلي مرتفع وذكاء عاطفي منخفض عندما يسألون عن الحالة العاطفية التي يمرون فيها يعجزون.

العواطف هي القوة الأكثر حضوراً وضغطاً وأحياناً ألماً في حياتنا. تدفعنا عواطفنا يوماً بعد يوم، فنحن نخوض الفرص لأننا متحمسون لآفاق جديدة، ونبكي لأننا قد جُرحنا، ونقدم التضحيات لأننا نحب. وبلا شك فإن مشاعرنا تُملي علينا أفكارنا ونوايانا وأفعالنا مع سُلطة عليا على عقولنا، ولكن عندما نتصرف وفق مشاعرنا، أو وفق أنواع خاطئة من المشاعر، فنحن غالباً ما نتخذ قرارات نرثيها في وقت لاحق.

يمكن لمشاعرنا أن تتغير بين نقيضين خطيرين، بين غضب حاد جداً أو نشوة مُفرطة. وكما هو الحال مع العديد من جوانب الحياة الأخرى، فإن أفضل المشاعر هي تلك التي يتخللها الاعتدال والمنظور المنطقي. وهذا لا يعني أن نمنع أنفسنا من الوقوع في الحب أو القفز مرحاً حال سماع أخبار سارّة، فهذه حقاً أشياء دقيقة في الحياة. المشاعر السلبية هي التي ما يجب التعامل معها بعناية فائقة.

المشاعر السلبية كالغضب والحسد والمرارة تجعلك تميل إلى فقدان السيطرة خصوصاً بعد أن تسمح لها بالخروج مباشرة دون تريث. ومثل هذه الأنواع من العواطف يمكن أن تنمو كالأعشاب الضارة، والتي تكيف العقل وببطء للتصرف وفق هذه المشاعر الضارة والسيطرة على الحياة اليومية.

هل سبق وأن التقيت بشخص عصبي أو عدواني؟ إنهم لم يولدوا على هذه الطبيعة، لكنهم سمحوا لبعض المشاعر بأن تُثار بدواخلهم لفترات طويلة، بحيث أصبحت مشاعر ملازمة لهم في كثير من الأحيان.

إذاً... كيف يمكننا تجنب المشاعر السيئة وإتقان التحكم بعواطفنا تحت أشد الظروف؟

كل ما عليك هو اتباع خطواتي الست التالية للتحكم بمشاعرك والتصرف بعقلانية في الظروف الصعبة:

لا تجعل ردة فعلك سريعة

يُعتبر التفاعل الفوري مع كل ما يثير العواطف خطأ فادحاً، وهذا الخطأ يمنحك الكثير من الأسى لاحقاً. وقبل أن تتخذ أي ردة فعل قد يكون محركها الأول العاطفة، خذ نفساً عميقاً لتحقق استقراراً لعاطفتك الجامحة. استمر بالتنفس ببطء لمدة خمس دقائق وأثناء ذلك استشعر ارتخاء عضلاتك وعودة نبضات قلبك لمعدلها الطبيعي. وبما أنك أصبحت الآن أكثر هدوءاً، أكّد لنفسك أن ما تشعر به مؤقت وزائل.

اسأل ربك الهداية

الإيمان هو ما ينقذنا في أحلك اللحظات. وبغض النظر عن عقيدتك، فإن تقوية إيمانك تساعدك على التغلب على العقبات الخاصة بكل يُسر وسهولة. هذا لأنك عندما تؤمن بقوة أعلى وتؤمن كذلك بقدرة الرب على أن يدلك لما يجب عليك القيام به، فإنك تعلم لما يحدث كل هذا وأيضاً تحفظ نفسك من المرور بحالة غير مرغوبة. وعندما تُثقل كاهلك الهموم، أغمض عينيك، وتصور حلاً إيجابياً لمشكلتك واطلب من الكون أن يُضيء لك الطريق الأفضل.

اعثر على منفذ صحي

الآن وبعد أن أجدت إدارة مشاعرك، تحتاج إلى إخراجها بطريقة صحية، فالمشاعر لا ينبغي أن تُحبس. وللتخلص منها بإمكانك أن تتصل بأحدهم أو تذهب لرؤية شخص تثق به وتروي له ما حدث. الاستماع لرأي آخر لا يوافق رأيك قد يكون خيار جيد من شأنه أن يوسع مداركك. واحتفظ بمذكرة ودوّن مشاعرك الخاصة على أوراقها. الكثير من الناس يجدون أنه من الجيد الانخراط في التمارين القاسية، كالملاكمة ومهارات الدفاع عن النفس كنوع من تحرير هذه المشاعر. وآخرون يجدون في التأمل والغناء

سبيلاً للعودة إلى الهدوء والاستقرار. باستطاعتك ممارسة أي نشاط يلائمك لتتخلص من مثل هذه المشاعر التي قد تسيطر عليك.

انظر لبعد أعمق

كل ما يحدث في حياتنا، سواء كان جيداً أو سيّئاً له سبب وغاية. فالحكمة تعني أنه باستطاعتك رؤية كل لحظة مضت واستنتاج المعاني غير الواضحة خلف كل حدث.

وفي البداية قد لا تتضح الرؤية لديك، ولكن مع مرور الوقت ستبدأ برؤية آفاق ومعانٍ أخرى لكل ما يمر بك. حتى في خضم اللحظات المزعجة عاطفياً، ثق أن هناك هدفاً والذي ستدركه لاحقاً.

بدِّل أفكارك

المشاعر السلبية تربطك بأفكار سلبية مماثلة لها، وهذا سيكّون نمطاً سلبياً لشخصيتك. كلما واجهت أفكار سيئة، أجبرها فوراً على الخروج من عقلك واستبدلها بفكر آخر مضاد لها. الحل المثالي لما تمر به هو تغيير ما تفكر به كأن تفكر بشخص يجعلك سعيداً أو تتذكر حدثاً جعَلك تبتسم.

سامح أولئك الذين يثيرون عاطفتك

من يُثير عواطفك قد يكون أعز أصدقائك أو أحد أفراد عائلتك أو حتى نفسك أو جميع ما سبق. قد تشعر بموجة مفاجئة من الغضب عندما يقوم صديقك بتكرار فعل كل ما هو مزعج بالنسبة لك أو شعور بالألم الداخلي عند تذكر شيء كان بإمكانك فعله بطريقة مختلفة. لكن عندما تسامح فإنك تتصرف على نحو أفضل. ستنجو بنفسك من شعور الغيرة أو الغضب التي قد تعلق بداخلك. وستسمح للآخرين أن يكونوا كما هم دون الحاجة تصعيد المشاعر. عندما تسامح، فإنك تنأى بنفسك من مشاعر قاسية قد تحيط بك.

وكنوع من التذكير الدائم ولطبيعتنا الحماسية فإن عواطفنا قد ترتفع وتنخفض أكثر من مرة في اليوم. لكننا غالباً نتصرف على نحو خاطئ عندما لا نحكم ضبط مشاعرنا خصوصاً المؤذية منها.

ولتجنب التصرف السريع تحت تأثير وطأة مشاعرك، اتخذ بضع خطوات بسيطة التي من شأنها أن تهدئ روحك وعقلك غير المستقر. وعندما تنتهي تلك اللحظات العصيبة، تكون ممتناً لنفسك إن استطعت أن تكون سيد عواطفك.[14]

[14] مقال د. كارمن هارا

الخاتمة

كما رأيت أيها القارئ الكريم أن العقل هو الميزان الذي لو اختل فما كان يوجد للإنسان قيمة فكم رأينا كماً من الصرعات التي تنهك العقل في التفكير، فكم من الأمور التي نضع أنفسنا فيها من علاقات واتباع الأهواء والشهوات التي توثر على حياتنا بشكل كبير ونقع في فخها ونحن في غنى عنها، لكن العاقل الكيّس الفطن هو من يستطيع الاستفادة والتعلم من كل من يمر به.

فإذا أحببت أن تعيش حياة مليئة بالحب والتفاؤل والجمال أيها القارئ الكريم ويا صديقي العزيز فكن متزناً في كل شيء في الحب والعاطفة وفي المعاملة مع الناس، كن وسطياً في كل شيء، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)

فالوسطية والاعتدال والاتزان هو السبيل للوصول إلى حياة مليئة بالحب والتفاؤل والجمال.

انتهى بحمد الله تعالى

محتويات الكتاب

إهداء.....5

تقريظ.....6

مقدمة.....8

الفصل الأول نظرات عن العقل.....10

الفصل الثاني الله والعقل.....30

الفصل الثالث صراع العقل مع النفس 60

الفصل الرابع صراع العقل مع القلب.....82

الفصل الخامس صراع العقل مع العاطفة 102

الخاتمة 136

محتويات الكتاب 137

تنمية ذاتية
صراعات العقل البشري
السيد متولي

الطبعة الأولى
1444 هـ 2022 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تخويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر .